الفصل الخامس

النَّثر وكُتَّابه

١

الرسائل الديوانية

ظلت مصر في عهد ولاتها من قبل الأمويين والعباسيين لا تعرف من الدواوين سوى ديواني الخراج والبريد، وكانت الكتابة في الديوان الأول باليونانية إلى أن تعرب في عهد الوليد بن عبد الملك، وعادة كان القائمون عليه وعلى ديوان البريد يجلبهم الولاة معهم من العراق،(٩٠٣) وبحق يقول القلقشندي إنه "لم يصدر عنهم ما يدون في الكتب وتتناقله الألسنة(٩٠٤)". ومرجع ذلك- كما لاحظ- أن الولاة لم يهتموا حينئذ باتخاذ ديوان للإنشاء. يوظف فيه كتاب مجيدون وتصدر عنهم رسائل محبرة.

حتى إذا ولى مصر أحمد بن طولون وأسس بها دولته الطولونية وامتد سلطانه إلى الشام وعلا شأنه أقام ديوان الإنشاء ورفع مقداره كما يقول القلقشندي،(٩٠٥) واتخذ فيه جماعة من مهرة الكتاب على رأسهم أحمد بن محمد بن مودود المعروف باسم ابن عبد كان. ويشهد اسمه بأنه فارسي الأصل، إذ الكاف في الفارسية القديمة تدل على

---

(٩٠٣) أنظر كتابنا "الفن ومذاهبه في النثر العربي" (طبع دار المعارف) ص ٣٤٥ وما بعدها.

(٩٠٤) صبح الأعشى ١/ ٩٥.

(٩٠٥) صبح الأعشى ١/ ٩٥ و ١١/ ٢٨.

obeikandi.com

التصغير والألف والنون على النسبة، فعبد كان يقابلها في العربية عبيدي. وقد ظل قائما على ديوان الإنشاء بعد وفاة ابن طولون في عهد ابنه خمارويه حتى توفي فخلفه على الديوان إسحق بن نُصَيْر الكاتب البغدادي.

وابن عبد كان يبتدئ بمصر سلسلة كتابها المشهورين، ودوَّت شهرته منذ زمنه لا في مصر وحدها بل أيضا في العراق، إذ نجده بعد نحو قرن من الزمان يُقْرَن إلى أبي إسحق الصابي كاتبها حينئذ. وإذا رجعنا إلى رسائله الديوانية وجدناه يُعنى فيها بالسجع، وقد يتخفف منه فيستخدم الازدواج من حين إلى آخر، وسجعه خفيف. ويمده بغير قليل من التصاوير،(٩٠٦) وتوقف القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ليذكر عنه كيف وضع رسوم الدعاء في افتتاح الرسائل وكيف تبتدئ أجوبةُ الكتب.(٩٠٧) وكان أهل بغداد في زمنه يغبطون عليه مصر، ويقولون إن بها كاتبا- يقصدون ابن عبد كان- ليس لأمير المؤمنين بمدينة بغداد مثله.(٩٠٨) وكانت رسائله متداولة بين الكتاب حتى زمن ياقوت في القرن السابع الهجري.(٩٠٩)

ونمضي إلى زمن الدولة الإخشيدية وقد ترتب ديوان الإنشاء وكثر الكتاب فيه، غير أن أحدا منهم لم يشتهر شهرة ابن عبد كان، ومن كتاب الديوان حينئذ إبراهيم بن عبد الله النجيرمي، واشتهر برسالة طويلة له، رد بها على رومانوس حاكم بيزنطة، وكان قد

---

(٩٠٦) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٤٩ وما بعدها.

(٩٠٧) صبح الأعشى ٨/ ١٦٠ وما بعدها.

(٩٠٨) صبح الأعشى ٣/ ١٧.

(٩٠٩) معجم الأدباء ٦/ ٨٥.

obeikandl.com

أرسل إلى الإخشيد رسالة يفتخر فيها ويمن عليه بأنه كاتبه وعادته أن لا يكاتب إلا خليفة، فكال له النجيرمي الصاع صاعين، ولإعجابه برسالته كتب منها نسخا وأرسلها إلى العراق مفاخرا بها مباهيا.(٩١٠)

ويستولى الفاطميون على مقاليد الأمور بمصر من منتصف القرن الرابع الهجري ويعظم ديوان الإنشاء في زمانهم لاتساع دولتهم من أقاصي المغرب إلى نهر الفرات وامتداد سلطانهم إلى الحجاز واليمن وأيضا لأنهم كانوا أصحاب نحلة شيعية غالية اتخذوا لها دعاة كثيرين في العالم العربي ونظموا الدعوة لها تنظيما دقيقا، فكان من الطبيعي أن يهتموا اهتماما واسعا بديوان الإنشاء القائم على كل شئون الدولة السياسية والإدارية والمذهبية، وفي ذلك يقول القلقشندي: "لما ولى الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتابه، فارتفع بهم قدره، وشاع في الآفاق ذكره، ووليه عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمي(٩١١)". وكانت لصاحب هذا الديوان منزلة كبرى لدى الفاطميين، فكان لا يتولاه- كما يقول القلقشندي- إلا أجلُّ كتاب البلاغة، ويخاطب بالأجلّ ويلقب بكاتب الدَّسْت، والدست صدر المجلس إشارة إلى أنه في الصدر من مناصب الدولة "وكان أول أرباب الإقطاعات في الكسوة والرسوم والملاطفات. . وله حاجب من الأمراء والشيوخ، وله في مجلسه المرتبة العظيمة والمخادّ والمسند والدواة العظيمة الشأن، ويحمل دولته أستاذ من خواص

(٩١٠) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد: القسم الخاص بالفسطاط (طبع جامعة القاهرة) ص ١٦٧ وما بعدها.

(٩١١) صبح الأعشى ١/ ٩٦.

obeikandi.com

الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة".[٩١٢] وكانت تساعده طائفة من الكتاب البلغاء. وبلغ من اهتمام الفاطميين بهذا الديوان أن ألحقوا به دائما أكبر النحاة واللغويين في أيامهم لمراجعة الرسائل قبل صدورها من الديوان، وممن اختاروه لذلك ابن بابشاذ كبير نحاة مصر ولغوييها في القرن الخامس الهجري وخلفه من مكانه ابن بركات من تلاميذه، حتى إذا توفي خلفه ابن بَرَّى اللغوي المشهور، إلى نهاية أيام الدولة الفاطمية.[٩١٣] وكان يلتحق بالديوان بعض الشباب للتدريب فيه على تجويد الكتابة، حتى إذا جَّودها شاب وأتقنا أصبح من كتَّابه على نحو ما حدث[٩١٤] للقاضي الفاضل بأخرة من زمن الفاطميين.

وتظل لديوان الإنشاء مكانته في عهد الأيوبيين، ويتولاه لصلاح الدين القاضي الفاضل مع قيامه على وزارته، ويشرك معه العماد الأصبهاني في الكتابة، وكان صاحب الديوان حينئذ يسمى كاتب الدَّسْت وكاتب الدَّرْج وهو الورق الذي يكتب فيه. واتسع عمل هذا الديوان اتساعا كبيرا في عهد المماليك، مما جعل الظاهر بيبرس يعين ثلاثة كانوا أصحاب الدَّسْت، حتى إذا تحولت السلطة إلى قلاوون سمي صاحب الديوان كاتب السر.[٩١٥] ورفع منزلته فوق كتاب الدست. وجعلهم أعلى درجة من كتاب الدرج، وكان في كل ولاية كبيرة لمصر ديوان إنشاء: في الإسكندرية وفي دمشق

---

(٩١٢) صبح الأعشى ١/ ١٠٢.

(٩١٣) صبح الأعشى ١/ ٩١ وما بعدها.

(٩١٤) أنظر كتابنا "المدارس النحوية" طبع دار المعارف ص ٣٣٨.

(٩١٥) ابن خلكان ٧/ ٢٢٠.

obeikandl.com

وغير دمشق. وظل هذا الديوان قائما إلى نهاية عصر المماليك، حتى إذا تبعت مصر الدولة العثمانية ضاعت منزلته نهائيا وأصبح أثرا بعد عين.

وفي صبح الأعشى للقلقشندي ثبت بأسماء من تولوا رياسة هذا الديوان حتى زمنه[٩١٦] سنة ٨٢١ وأضاف إليه ابن تغري بردي من تولوه حتى أيامه[٩١٧] سنة ٨٦٥ وأتمه السيوطي حتى نهاية القرن التاسع الهجري،[٩١٨] ووراء هؤلاء الرؤساء كتاب كثيرًا ما بذُّوا من كانوا يكتبون بين أيديهم وهم كثيرون. ومرَّ بنا أن ابن عبد كان الذي وضع رسوم الكتابة الإنشائية بمصر لزمن الطولونيين كان يعني بالسجع فإن تركه فإلى صور من الازدواج، وظل كتاب الدولة الفاطمية في القرن الرابع الهجري يترسمون طريقته، فهم يسجعون ويزاوجون على نحو ما يلاحظ في الكتب التي كانت تصدر عن المعز والعزيز، ويبدو أن ابن سورين المسيحي كاتب العزيز والحاكم كان يعني بالسجع كثيرا.[٩١٩] وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجري، وجدنا كتابا يصدر على لسان الخليفة الظاهر سنة ٤١٤ مسجوعا كله، وربما كان الذي كتبه أحمد بن علي بن خيران الملقب بولي الدولة، وكان يلي ديوان الإنشاء في عهد الظاهر (٤١١- ٤٢٧هـ) والمستنصر إلى وفاته سنة ٤٣١، وكان كاتبا شاعرا، وكان يعتد بشعره وكتابته مما جعله يرسل إلى الشريف المرتضى ببغداد جزءين من شعره ورسائله ليعرضها على الأدباء

---

(٩١٦) السلوك للمقريزي ١/ ٦٦٦ وابن تغري بردي ٧/ ٢٣٢.

(٩١٧) صبح الأعشى ١/ ٩١ وما بعدها.

(٩١٨) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٧/ ٣٣٤ وما بعدها.

(٩١٩) المغرب في حلى المغرب (القسم الخاص بالقاهرة ـ طبع مطبعة دار الكتب) ص ٢٤٩.

obeikandl.com

هناك، فإن استحسنوهما خلدهما له بمكتبة دار العلم، وأعجب هلال بن المحسن الصابئ- فيما يبدو- برسائله.(٩٢٠) ويقول ابن سعيد في المغرب: "وقفت على رسائله في مجلدين. وأكثرها من طبقة المغسول"(٩٢١) ويسوق له رسالة عن الظاهر مسجوعة، ويبدو أن ابن سعيد بالغ في الحكم عليه، أو لعله وجد عنده السجع فقط ولم يجد سجعه يزدان بألوان البديع، ولذلك قال إن رسائله مغسولة أي من زينة البديع ومحسناته، ومع ذلك فقد روى له قوله في فصل من إحدى رسائله: "وكان قلمك يَجِفُ(٩٢٢) ولا يجفّ، وسيفك من ذوي العناد يَكِفُ(٩٢٣) ولا يكفُّ، ووزنك في سَدَّ ثُلَم الفساد يَرجع ولا يخفّ". والجناس واضح بين يَجِفُ ويجفّ وبين يَكفُ ويكُفُّ وقد طابق بين يرجح ويخف مما يدل على أن ابن خيران لم يكن يخلي سجعه من محسنات البديع، فهو ليس مغسولا دائما كما يقول ابن سعيد.

ولعل أهم كاتب خلف ابن خيران بديوان الإنشاء في القرن الخامس الهجري ابن أبي الشخباء ولم يكن من رؤساء الديوان بل كان من الكتاب فيه، وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية. واشتهر ابن الصيرفي في إثره إذ تولى ديوان الإنشاء في عهد الآمر (٤٩٥- ٥٢٤ هـ) وسنترجم له عما قليل. وكان يكتب معه ابن قادوس المار ذكره بين الشعراء، ومازال يرقي في الديوان حتى أسند إليه الديوان مع المرفق بن الخلّال إلى

---

(٩٢٠) معجم الأدباء ٩/ ٥ وما بعدها.

(٩٢١) المغرب (قسم القاهرة) ص ٢٤٧.

(٩٢٢) يجف: يسرع. وفي الأصل يوجف.

(٩٢٣) يكف: يسيل.

وفاته سنة ٥٥١. وكان يعمل معه لزمن ابن الصيرفي الحسن بن زيد الأنصاري وهو حفيد ابن أبي الشخباء من قبل أمه، وكان كاتبا بليغا واحتفظ العماد الأصبهاني بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية.(٩٢٤) وقام على ديوان الإنشاء حتى نهاية الدولة الفاطمية الموفق بن الخلَّال وفي صبح الأعشى بعض رسائله،(٩٢٥) وعلى يديه تخرَّج القاضي الفاضل في صناعة الرسائل. وظل يرعى له حق التعليم والتخريج إلى أن توفي سنة ٥٦٦ للهجرة.

وكان القاضي الفاضل صاحب ديوان الإنشاء ووزير صلاح الدين وابنه العزيز ومقاليد الأمور كلها بيده فأشرك معه العماد الأصبهاني كما أسلفنا، وسنترجم لهم بعد قليل، ومن كتاب الأيوبيين في عهد الفاضل ابن مماتي وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية، وكتب من بعدهما للأيوبيين جماعة، منهم البهاء زهير الشاعر الذي ترجمنا له، ولم تؤثر له رسائل مدونة، وأشرك معه إبراهيم بن لقمان لعهد الصالح نجم الدين أيوب. ولم يلبث الصالح أن أعفي البهاء، وظل ابن لقمان حتى نهاية الدولة الأيوبية، وامتازت الكتابة الديوانية في العهد الأيوبي بأنه تكونت فيها مدرسة جديدة قادها القاضي الفاضل، والحق أنها ليست جديدة خالصة، فهي الثمرة النهائية لرقي الكتابة زمن الفاطميين، إذ ترى الفاضل يكثر من المحسنات البديعية، وكانت قد بدأت مع ابن خيران كما مر بنا، وأضاف الفاضل إليها الإكثار من التورية، وهي أيضا قديمة في

---

(٩٢٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/ ٧٣.

(٩٢٥) صبح الأعشى ١٠/ ٣١٠ و ٣١٦ وأنظر في ترجمته الخريدة ١/ ٢٣٥ وابن خلكان ٧/ ٢٢٠ وشذرات الذهب ٤/ ٢١٩.

الكتابات والأشعار الفاطمية منذ القرن الخامس على نحو ما مر بنا في حديثنا عن أشعار الشريف العقيلي. وألف في العصر الأيوبي كتابان في دواوين الخراج وشئونها المالية هما كتابا قوانين الدواوين لابن مماتي، وسنعرض له في ترجمته عما قليل، وكتاب لمع القوانين المضيَّة في دواوين الديار المصرية لعثمان بن إبراهيم النابلسي، وكان كاتبا في دواوين مصر لعهد السلطان نجم الدين الأيوبي (٦٣٧ - ٦٤٨ هـ).

وبلقانا إبراهيم(٩٢٦) بن لقمان على ديوان الإنشاء أيام المماليك في عهد أيبك وقطز وبيبرس ومدة قليلة في عهد قلاوون ثم نقله إلى الوزارة، وظل وزيرا لابنه خليل. ثم عاد كاتبا في ديوان الإنشاء إلى أن توفي سنة ٦٩٣. وكان يشاركه في عهد الظاهر بيبرس محيي الدين بن عبد الظاهر، وهو أهم كتاب المماليك، وجعله قلاوون كاتب السر، وظيفة أنشأها لأول مرة، وسنترجم لابن عبد الظاهر، وممن كان يكتب بين يديه في الديوان ابنه فتح(٩٢٧) الدين. وخلفه على كتابة السر لعهد السلطان خليل بن قلاوون، وكتب بين يديه أيضا سِبْطُه شافع(٩٢٨) بن علي بن عباس، وهو الذي كتب عن السلطان قلاوون رسالة طويلة إلى السلطان أحمد القان بن هولاكو جواب كتاب كان قد أرسله القان إلى قلاوون يذكر فيه إسلامه وأنه حَّرم على عساكره الغارات على البلاد.(٩٢٩)

---

(٩٢٦) أنظر في ابن لقمان صبح الأعشى ١٠/ ١١١ والنجوم الزاهرة ٨/ ٥٠.

(٩٢٧) أنظر في فتح الدين حسن المحاضرة ١/ ٥٧٠ والنجوم الزاهرة ٨/ ٣٥ وصبح الأعشى ١٣/ ٣٣٩ وشذرات الذهب ٥/ ٤١٩.

(٩٢٨) راجع ترجمته في فوات الوفيات ١/ ٣٧٦.

(٩٢٩) صبح الأعشى ٧/ ٢٣٧.

obeikandl.com

ويلمع في رياسة ديوان الإنشاء بمصر ودمشق منذ عند السلطان خليل المتوفى سنة ٦٩٣ حتى نهاية القرن الثامن غير كاتب من أسرة فضل الله العمري. وأول من ولى كتابة السر منها أو بعبارة أخرى رياسة الديوان عبد الوهاب بن فضل الله العمري،(٩٣٠) وظل يشغل هذه الوظيفة حتى العقد الثاني من القرن الثامن إذ نقله الناصر بن قلاوون إلى دمشق ووليها بعده من الأسرة في سنة ٧٢٩ أخوه(٩٣١) محيي الدين يحيي، وكان يشركه في كتابة السر ابنه شهاب الدين أحمد، وفي سنة ٧٣٢ نقلها الناصر فترة قليلة إلى دمشق ولم يلبث أن أعادهما فظلا على كتابة السر حتى سنة ٧٣٨ إذ تغير الناصر على شهاب الدين وأقام مقامه أخاه(٩٣٢) علاء الدين، وظل في الوظيفة حتى سنة ٧٦٩ وتولاها بعده ابنه بدر الدين(٩٣٣) إلى أن توفي سنة ٧٦٩.

ومن الكتاب المهمين المعاصرين له ابن مكانس، وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية. ويلمع في أوائل عهد المماليك البرجية اسم القلقشندي صاحب صبح الأعشى، ولم يتول كتابة السر ولكنه ألمع كاتب بالدواوين في زمنه وسنترجم له بين كتاب المقامات. ويتولى رياسة ديوان الإنشاء غير كاتب مصري وشامي ويتوقف النشاط فيه مع دخول العثمانيين مصر كما أسلفنا وتعرض طائفة من أنبه كتابه.

---

(٩٣٠) النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٠.

(٩٣١) أنظر ترجمته في فوات الوفيات ٢/ ٤٦.

(٩٣٢) النجوم الزاهرة ١١/ ١٠٢.

(٩٣٣) النجوم الزاهرة ١٢/ ١٤٠.

obeikandl.com

ابن[٩٣٤] الصيرفي

هو علي بن منجب بن سليمان ولد بالقاهرة سنة ٤٦٣ وكان أبوه صيرفيا، بينما كان جده معدودا بين كتاب زمنه. ولعله هو الذي وجهه إلى اتخاذ الكتابة الديوانية حرفة له. ولابد أنه جمع له من أسبابها وأدواتها الثقافية ما جعله يتقنها سريعا، والتحق بديوان الجيش وعني به صاحبه صاعد بن مفرج، وعمل في ديوان الخراج. وتنبه له وزير مصر لأيامه الأفاضل بن بدر الجمالي (٤٨٧- ٥١٥ هـ) فنقله إلى ديوان الإنشاء، وأعجب به متوليه سناء الملك أبو محمد الحسني الزيدي، فأسند إليه كتابة التقاليد والمراسيم والتوقيعات، حتى إذا توفي الخليفة الفاطمي المستعلي سنة ٤٩٥ وولى الأفضل الجمالي ابنه الآمر (٤٩٥- ٥٢٤ هـ) وهو في الخامسة من عمره حينئذ نرى ابن الصيرفي هو الذي يكتب السجل بوفاة المستعلي وولاية الآمر. ويُقرأ سجله على رءوس كافة الأجناد والأمراء. ويضيف إلى ذلك كتابا عن الآمر عند استقراره في الخلافة بعد أبيه بأنه فوض إلى الأفضل الجمالي ووزيره تدبير شئون الدولة والرعية. ويكتب كتابا ثانيا إلى ولاة الأطراف بعد كتابة السجل أو العهد وتفويض الأمور إلى الأفضل مهنئا فيه بخلافة الآمر وتجديد ولايته. ويسجل القلقشندي في صبحه طائفة أخرى من كتب ابن

---

(٩٣٤) أنظر في ابن الصيرفي وترجمته ورسائله معجم الأدباء ١٥/ ٧٩ وتاريخ مصر لابن يسر في مواضع مختلفة وحسن المحاضرة ١/ ٦٠٤ وصبح الأعشى ١/ ٩٧، ٨/ ٢٣٧ ـ ٢٤١، ٣١٦ ـ ٣٢١، ٣٢٤، ٣٢٩ وخطط المقريزي ٢/ ٢١٤ والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة ـ طبع دار الكتب المصرية) ص ٢٥٢ وراجع كتابيه قانون ديوان الرسائل (طبع مصر) والإشارة إلى من نال الوزارة (طبع المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة).

الصيرفي في البشارة بسلامة الخليفة في مواسم رمضان إذ كانت تكتب في مواكب الجمعة الأولى والثانية والثالثة وكذلك في عيد الفطر وعيد النحر، وحذف القلقشندي من تلك الكتب اسم الخليفة، وقد ظل يعمل في ديوان الإنشاء لعهد الآمر برياسة الشيخ ابن أسامة، حتى إذا خلفه فيه ابنه أبو الرضا شركه في رياسة الديوان، ثم انفرد برياسته لعهد الحافظ (٥٢٤- ٥٤٣ هـ). ويبدو أنه ظل يعمل فيه حتى توفي سنة ٥٤٢. ويذكر ياقوت أنه توفي لأيام طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز بعد سنة ٥٥٠ ولعل التاريخ الأول لوفاته هو الصحيح.

وكان ابن الصيرفي كاتبا بليغاً بل يُعَدّ أبلغ الكتاب المصريين زمن الفاطميين، وفيه يقول ياقوت: "أحد فضلاء المصريين وبلغائهم مسلَّم ذلك له غير منازع فيه. . وله رسائل أنشأها عن ملوك مصر تزيد على أربع مجلدات" ويشيد ابن سعيد في المغرب ببلاغته قائلاً: "وقعت على ترسله في مجلدات عدة، فوجدت [القاضي] الفاضل البيساني ينسج على منواله وينزع منزعه" وسنعرف عما قليل أن القاضي الفاضل أبرع كتاب مصر في هذا العصر. وتتضح مهارة ابن الصيرفي البيانية في أول كتاب احتفظ له القلقشندي به، وهو السجل الذي كتبه على لسان الآمر بوفاة الخليفة المستعلي وولايته الخلافة بعده سنة ٤٩٥ وقد استهله بحمد الله والصلاة على الرسول وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين، يقصد آباءه من الخلفاء الفاطميين، ويقول إن الله استرعى الأئمة هذه الأمة مشيراً بذلك إلى أن الله اصطفاه لهداية الناس، ويصلى على جده لأبيه على بن أبي طالب، ويقول "إن الله أكرمه بالمنزلة العلية، وانتخبه للإمامة رأفة بالبرية، وخصَّه بغوامض علم التنزيل، وجعل له مبرة التعظيم ومزية التفضيل". وكان ذلك

ترداد لما كان يبدئ الفاطميون فيه ويعيدون من تفضيل علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر وغيرهما من جِلَّة الصحابة، وأن الله خصه بعلم فوق العلم الديني المعروف للأمة، به يعرف المعنى الحقيقي للقرآن أو المعنى الخفي الذي يعلو عل الفهم العادي، ويشيد ابن الصيرفي على لسان الآمر بنشر أبيه المستعلي للعدل بين الرعية، ويصور فداحة الرزء به والفجيعة فيه ثم يقول:

"وقد كان الإمام المستعلي بالله- قدس الله روحه- عند نقلته، جعل لي عقد الخلافة من بعده، وأودعني ما حازه من أبيه عن جده، وعهد إلي أن أخلفه في العلم، وأجري الكافة في العدل والإحسان على منهجه المتعالم، وأطلعني من العلوم على السر المكنون، وأفضى إلي من الحكمة بالغامض المصون، وأوصاني بالعطف على البرية، والعمل فيهم بسيرته المرضية، بما جبلني(٩٣٥) الله عليه من الفضل، وخصني به من إيثار العدل، وإنني- فيما استرعيته- سالك منهاجه، عامل بموجب الشرف الذي عَصَب الله لي تاجه".

والسجل أو العهد كله بهذه اللغة الصافية المسجوعة، لا غرابة في كلمة ولا نبو في لفظ، بل ينساب الكلام في فيض من البراعة البيانية، وفيه يقرر ابن الصيرفي على لسان الآمر أن الخلافة انتقلت إليه بالوراثة عن آبائه، وأن أباه عهد إليه بها، فهو يخلفه عن عهد أو وصية، وعند الفاطميين وجميع الشيعة أن الرسول أوصى بالخلافة لعلي وأنها تنتقل بالوصية من الأب إلى الابن. ويقول ابن الصيرفي على لسان الآمر إن الله أطلعه من العلوم على السر المكنون ومن الحكمة على الغامض المصون، مشيراً بذلك إلى عقيدة

(٩٣٥) جبلني: خلقني.

الفاطميين في أن الأئمة يتميزون من الناس بعلم باطني يتوارثه إمام بعد إمام متنقلاً من جيل إلى جيل، وهو عندهم علم لا يشمل أمور الدين وحقائقه فحسب، بل أيضا يتسع ليشمل حوادث العالم حتى يوم القيامة، وهو ما يفرض لهم على الناس طاعة واجبة لا تحدها حدود، طاعة بدون قيد أو شرط.

وتتوالى كتب ابن الصيرفي في الجزء الثامن من صبح الأعشى يكتبها في وصف خطابة الآمر وصلاته في جُمع شهر رمضان وفي عيد الفطر وعيد النحر أو الأضحى وفي وفاء النيل. ولا نراه يعود إلى مثل الإشارات السالفة للعقيدة الفاطمية الإسماعيلية، ويبدو أنه لم يكن غالياً في العقيدة أو لعل القلقشندي حذف مما دونه من كتبه ورسائله غلوه. ولم يكن كاتباً بليغاً يكتب الرسائل الديوانية فحسب، بل كان أيضاً يكتب رسائل أدبية طريفة، وقد أشار إليها ابن سعيد في المغرب حين قال: "له تصانيف مشهورة صغار ظراف" ويبدو أنه كان قد صنفها للوزير الأفضل بن بدر الجمالي صاحب الأيادي السابغة عليه، وله فيه إشادات مختلفة سجلها في رسائله الديوانية التي أشرنا إليها وردَّدها مرارا وتكرارا، وقد ذكر ابن سعيد من تصانيفه كتاب "لُمح المُلَح(٩٣٦)" وأورد من نثره فيه قوله:

"جرت العادة في الغِطاس، إعمال الكاس والطاس، وهذه الآلة- إذا فقدت الراح- بمنزلة أجسام عدمت الأرواح، فداوِ بإحيائها قلبا لي قريحا، وإذا كانت عازَر فكن مسيحا".

---

(٩٣٦) في المغرب (قسم القاهرة) : ملح الملح.

obeikandi.com

والغطاس عيد من أعياد القبط بمصر كان يحتفل بليلته النصارى والمسلمون في الحادي عشر من شهر طوبة أشد أشهر الشتاء برودة، وكانوا يكثرون فيه من الملاهي في الزوارق بالنيل وعلى شاطئيه كما كانوا يكثرون من إيقاد المشاعل والفوانيس مع الاستماع إلى المغنين والمغنيات. وواضح أن ابن الصيرفي يشير إلى ما كان يتخذ في هذا العيد من اللهو وشرب الخمر في أوعيتها من الكاس والطاس، ويقول إن هذه الأوعية إن لم تملأ بالخمر أو الراح كانت أجساما بدون أرواح. وكأنه يطلب خمرا من صديق، فيقول له: داو بإحيائها قلبا لي جريحا، يطلب منه أن يبث في دنانه الحياة التي عدمتها بفقدانها الراح. ويقول إنها أصبحت مثل الميت المعروف باسم عازر الذي أحياه المسيح، فأحيها وابعثها من جديد. ويذكر ابن سعيد من رسائل ابن الصيرفي الأدبية التي صنفها للأفضل الجمالي رسالة بعنوان "منائح القرائح" وينقل من صدرها قوله:

"أولى ما تُقُرِّبَ به إلى الله تعالى الإكثار من تحميده، والإقرار بربوبيته وتوحيده، والصلاة على نبيه محمد الذي عَضده بتأييده، وخصَّه من الشرف بما لا سبيل إلى تحديده،(٩٣٧) وعلى آله الممنوحين من الفضل ما يعجز الواصف عن تعديده، ثم التوسل إلى ملوك كل وقت بشكر نعمتهم ومواصلة خدمتهم، وشَهْر خصائصهم التي امتازوا بها عن العباد، وذكر مناقبهم التي سارت في الأقطار ونَقَّبت(٩٣٨) في البلاد، والاجتهاد فيما نفقت(٩٣٩) بشريف مقاماتهم سوقه، والاعتماد على ما ظهر

(٩٣٧) في المغرب: تجديده.

(٩٣٨) نقبت: ذهبت وشاعت.

(٩٣٩) نفق: راج.

سُمُوقه(٩٤٠) في البلاغة وبُسُوقه، ولا خلاف أن سلطان هذا العصر، والمخصوص من الفضائل بما لا يدخل تحت الحصر، مالكُنا السيد الأجلّ الأفضل أمير الجيوش سيف الإسلام، ناصر الإمام" يقول ابن سعيد: وأخذ في الإطناب على الأفضل. ويذكر أنه قال من تتمة تقدمته لتلك الرسالة:

"فيجب على كل من صَفَتْ فكرته، وصحَّت فِطْرته، وأمكنه استنباط معنى غامض، واستدلَّ على المحاسن بَبْرقها الوامض، وعرف موضع الفضيلة فيما يضعه(٩٤١) من تصنيف، وعلم موقع الوسيلة به إلى كل موقف شريف، أن يُظهر كامن قُوَّته، ويُعْمل مطايا رَوِيَّتِه، فيما يخدم مجلسه(٩٤٢) العالي به، مما يُطْرب مورده ومسموعه، ويعجب مؤلفه ومجموعه".

وواضح أن ابن الصيرفي كان يحسن الكتابة إحسانا بعيدا، دون أي غرابة في لفظ، بل مع السهولة واليسر، فسجعه خفيف لا غلظ فيه ولا كزازة، وكأنه يفيض من ينبوع غَدِق، شرابا يمتع النفس. وكان يوشيه أحيانا بالألفاظ القرآنية مثل قوله عن المناقب إنها "نقبت في البلاد" أي مضت وانتشرت أخذا من قوله تعالى: (فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ). واقتباسه للألفاظ والآيات القرآنية واضح في رسائله. وكثيرا ما يوشى سجعه بالمحسنات البديعية وخاصة الاستعارة والتشبيه والجناس والطباق. وأورد ابن

---

(٩٤٠) سموقه وبسوقه: ارتفاعه.

(٩٤١) في المغرب: يصنفه.

(٩٤٢) في المغرب: محله.

سعيد لُغْزًا له في السيف على هذا النحو: "يبالغ في شكره إذا أقصد[٩٤٣] وجرَّح، وتقبل في تزكيته شهادة المجرَّح". وفي كلمتي التزكية والمجرح توريتان واضحتان فللتزكية معنيان. التعديل من قولهم زكى الشهود أي عدَّلهم، وهو المعنى القريب للكلمة بدليل كلمة الشهادة وهو الذي لا تقبل شهادته. ومعنى ثان بعيد وهو المجَرَّح بالسيف في الحرب، وهو أيضا المراد. ولعل في هاتين التوريتين ما يدل على أن ابن الصيرفي كان يستظهر التورية في نثره أحيانا ومر بنا أن شعراء القرن الخامس وفي مقدمتهم الشريف العقيلي كانوا يستخدمونها كثيرا. وتبعهم في ذلك الكتاب كما نرى الآن عند ابن الصيرفي. وبذلك يتبين خطأ ابن حجة الحموي حين زعم أن القاضي الفاضل هو الذي ذلل من التورية الصعاب وأنزل الشعراء بساحتها ورحابها[٩٤٤] فقد نزلها شعراء الدولة الفاطمية من قبله وكتابها، وبهديهم اهتدى القاضي الفاضل، وعن قوسهم رمى.

ولابن الصيرفي كتابان مطبوعان موجزان هما: قانون ديوان الرسائل، وكتاب الإشارة إلى من نال الوزارة. والكتاب الأول في نظام ديوان الرسائل وبيان ما ينبغي أن يتحلى به رئيسه وموظفوه من ثقافات وصفات مميزة، وبه مقتطفات من بعض رسائله وهو كتاب نفيس. والكتاب الثاني يؤرخ في إجماله لوزراء الدولة الفاطمية، وهو مع إجماله بالغ الأهمية التاريخية. وأنشد ياقوت لابن الصيرفي بعض أشعار، وهي تدل على أن ملكته النثرية كانت أخصب من ملكته الشعرية.

---

(٩٤٣) في المغرب: أفسد، وأقصد السهم: أصاب.

(٩٤٤) خزانة الأدب للحميري (طبعة بولاق) ص ٦٧.

obeikandi.com

القاضي[٩٤٥] الفاضل

هو عبد الرحيم بن علي بن حسن اللخمي أصلا، العَسْقلاني مولدا، البَيْساني نسبة إذ كان أبوه يتولى قضاء بَيْسان بفلسطين للفاطميين فنسب إليها. ويذكر بعض من ترجموا له أنه ولد سنة ٥٢٩ وأكبر الظن أنه ولد قبل هذا التاريخ. كما سنرى بعد قليل. وكان طبيعيا أن يعنى أبوه بتربيته، وبدأ بإرساله إلى كتّاب أو مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، وحفظه وحفظ كثيرا من الأشعار. ويبدو أن الأب أحس بميل ابنه إلى الأدب، فرأى أن يرسل به إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة ليتدرب فيه على الكتابة، وفرح الابن برغبة أبيه: أن يصبح من كتاب الدواوين الفاطمية، فسافر إلى حاضرة الفاطميين لعهد الخليفة الفاطمي الحافظ (٥٢٤- ٥٤٣هـ) ويقول الرواة إنه كان في الخامسة عشرة من عمره، ونظن ظنا أن سنه كانت أعلى من ذلك على الأقل سنتين أو أكثر حتى يتسنى له أن يهاجر من بيسان إلى القاهرة، وقد اشتد عوده قليلا وخاصة أنه كان أحدب ضعيف البنية. ويقول الرواة إنه حين ألم بديوان الإنشاء كان يرأسه الموفق بن الخلّال أحد كتاب مصر المبدعين، وكان يشركه في رياسته ابن قادوس الذي ترجمنا له بين الشعراء، وظلت

---

(٩٤٥) أنظر في ترجمة القاضي الفاضل ورسائله وشعره عبر الذهبي ٤/ ٢٩٣ وابن خلكان ٣/ ١٥٨ وطبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٦٦ وحسن المحاضرة للسيوطي ١/ ٥٦٢ والخريدة للعماد الأصبهاني (قسم شعراء مصر) ١/ ٣٥ والنجوم الزاهرة ٦/ ١٥٦ وشذرات الذهب ٤/ ٣٢٤ ونهاية الأرب ٨/ ١ـ٥١ وصبح الأعشى (أنظر الفهرس) وراجع الكتب التاريخية في زمنه وخاصة كتاب الروضتين. ونشر له د. أحمد بدوي ديوانه ومختارات محيي الدين بن عبد الظاهر من نثره باسم الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم. وله فيه كتاب بعنوان: القاضي الفاضل: دراسة ونماذج، وأنظر كتابنا "الفن ومذاهبه في النثر العربي" ص ٣٦٨.

obeikandl.com

لهما الرياسة حتى توفي ابن قادوس فانفرد بها الموفق بن الخلال حتى نهاية الدولة الفاطمية.

وعُنى به الكاتبان الكبيران، وخاصة الموفق بن الخلال، ويقول القاضي الفاضل إنه سأله في أول لقاء له: ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات؟ فأجابه ليس عندي شيء سوى أن أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة، فقال له. في هذا بلاغ ثم أمره بملازمته فمكث يتردد إليه ويتدرب بين يديه، وأمره الموفق بحل شعر ديوان الحماسة، فحله من أوله إلى آخره، ولم يزل ابن الخلال يدربه حتى أتقن فن الكتابة. ويبدو أنه أحس أن المكانة التي يريدها لنفسه في ديوان الإنشاء بالقاهرة من الصعب تحقيقها سريعا لكثرة منافسيه فيه، فرحل إلى ابن حديد قاضي الإسكندرية ومتولي الأمر فيها لعله يحقق لنفسه ما يريد من الشهرة، ورحب به ابن حديد وعهد إليه بالكتابة عنه وظل عنده ثماني سنوات، وكانت كتبه تسترعي أنظار موظفي الديوان الفاطمي لفصاحته فيها وحسن بيانه. ويقول الرواة إنها لفتت نظر العادل بن رزيك حين تقلد الوزارة للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٥٦ فأرسل إلى ابن حديد في طلبه ليعمل في دواوينه، وأرسل إليه، ووظفه رئيسا لديوان الجيش وتوثقت الصلة بينه وبين الوزير. ويبدو أنه انتقل من ديوان ابن حديد إلى دواوين الخلافة بالقاهرة في وقت مبكر عن خلافة العاضد (٥٥٥– ٥٦٧) إذ نرى في الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٨ عهداً من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ولم يُذكر اسم الخليفة، وآخر خليفة فاطمي تولى الخلافة بعد أبيه الفائزين الظافر الذي تقلدها من سنة ٥٤٩ إلى سنة ٥٥٥ ووليها بعده عمه العاضد آخر خلفائهم. وواضح أن هذا العهد يؤكد أن القاضي

الفاضل عمل في دواوين القاهرة على الأقل في عهد الفائز بل لابد أن يكون قد عمل فيها قبله في عهد أبيه الظافر (٥٤٣- ٥٤٩) حتى يتمكن أن يكتب عنه هذا العهد. وقد استخلص الموفق ابن الخلال رئيس ديوان الإنشاء لنفسه فكان يكتب بين يديه. ولا يلبث شاور أن يقتل العادل ويستولي على مقاليد الوزارة سنة ٥٥٨، وينشب خلاف عنيف بين شاور وضرغام على نحو ما مر بنا في الفصل الأول من هذا القسم، ويستنجد شاور والخليفة العاضد بنور الدين صاحب حلب، ويقدم عليه شاور ويرسل معه بعساكر يقودها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وينصرانه. وسرعان ما يعض اليد التي نصرته. وتتطور الأمور ويستعين شاور بالصليبيين مرارا، ويستصرخ العاضد نور الدين فيرسل إليه شيركوه وابن أخيه صلاح الدين المرة تلو المرة ولكن "شاور" لا يثوب إلى رشده فُيفتك به ويُقتل، ويتقلد أسد الدين شيركوه الوزارة المصرية للخليفة العاضد.

وفي هذه الأثناء كان القاضي الفاضل يكتب السجلات والتقاليد والمنشورات عن العاضد بين يدي الموفق بن الخلال، وكان قد أخذ بصر الموفق يضعف جدا حتى أضرَّ، فأصبح القاضي الفاضل هو المتصرف في المكاتبات باسم العاضد وفي الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهد من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة، ولم يذكر اسم الخليفة، وأكبر الظن أنه العاضد، وتكثر العهود والسجلات من إنشائه في الجزء العاشر مما كتب به عن العاضد إلى القضاة والولاة بتقلد أعمالهم، ومن ذلك العهد الذي كتبه عن العاضد بتولي أسد الدين شيركوه الوزارة في شهر ربيع سنة ٥٦٤ وتفويض كل شيء إليه، وأيضا العهد الذي كتبه عن العاضد في نفس السنة حين توفي

obeikandi.com

أسد الدين في جمادى الآخرة بتولي ابن أخيه صلاح الدين الوزارة بعده. وكان القاضي الفاضل قد وثق الصلة به وبعمه، وأنس به صلاح الدين وتمكن منه غاية التمكن كما يقول ابن خلكان، فلم يكتف له برياسته لديوان الإنشاء، بل اتخذه وزيرا، قلما يبرم شيئا إلا بعد مشورته، وكان إذا أناب عنه أحدا من أفراد أسرته بمصر في أثناء غزواته للصليبيين أبقاه معه لإدارة دفة السياسة، وكثيرا ما كان يصحبه معه في مواقعه مع الصليبيين، وخاصة منذ منازلته لهم في حطين وفتح القدس.

وكان القاضي الفاضل اللسان المبين لصلاح الدين طوال حكمه يكتب عنه إلى الخلفاء العباسيين والملوك والولاة مسجلا أحداث زمنه ومبلغا عنه عهوده وسجلاته وتوقيعاته إلى كل من تشملهم راية حكمه من الإسكندرية إلى الفرات وإلى النوبة وأقاصي الصعيد والحجاز واليمن. وبلغ من تقدير صلاح الدين له أن كان يقول لأصحابه، لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، إنما ملكتها بقلم القاضي الفاضل. وللفاضل كتب كثيرة وجه بها إليه، تفيض بالحب والإجلال والإعزاز، وكان حاضرا وفاته بدمشق سنة ٥٨٩، وبكاه بكاء مرا. وولى بعده على مصر ابنه العزيز فآزره، وظل عنده في نفس المكانة التي كانت له عند أبيه والرفعة ونفاذ الأمر، وتوفي العزيز سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه المنصور وكان صبيا فظل على ولائه له وعونه، حتى قدم الأفضل عمه من الشام. ولم يلبث السلطان العادل أخو صلاح الدين أن قدم إلى مصر بنية أخذها من المنصور وعمه الأفضل في سنة ٥٩٦ وكانت بينه وبين القاضي الفاضل وحشة كما يقول ابن تغري بردي، فدعا الفاضل على نفسه بالموت- فيما يقولون- واستجاب الله دعوته فبينما كان العادل داخلا من باب النصر كانت جنازة الفاضل خارجة من باب زويلة.

وكان الفاضل شاعرًا وله ديوان شعر مطبوع، كما كان كاتبا، ودوت شهرته في الكتابة، وعد فيها رئيس مدرسة تبعه فيها المصريون والشاميون، وفيه يقول العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة: "رَبّ القلم والبيان واللّسن واللسان، والقريحة الوقّادة، والبصيرة النقّادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرزة، والفضل الذي ما سُمع في الأوائل بمن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره، أو جرى في مضماره، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع، ورسخت بها الصنائع، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار، ويطلع الأنوار، ويبدع الأزهار". ويقول النويري: "إلى القاضي انتهت صناعة الإنشاء ووقفت، وبفضله أقَرَّت أبناء البيان واعترفت، ومن بحر علمه رَوِيَتْ ذوو الفضائل واغترفت، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها، وبين يديه استقرت به نواها، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره، ورافع علم البيان لا محالة، والفاضل بغير إطالة".

وفيما يلي قطعة من السجل أو العهد الذي كتبه بلسان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مسندا فيه الوزارة إلى صلاح الدين، يقول بعد أن صَّور ما قدمه هو وعمه أسد الدين شيركوه للعاضد من عون متحدثا بلسان الخليفة:

"ولو لم يكن لك هذا الإسناد في هذا الحديث، وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث، لأغنتْك غريزةٌ، عزيزة، وسَجِيّة، سجيَّة،(٩٤٦) وشيمة، وسيمة،(٩٤٧)

(٩٤٦) سجية: خليقة، وسجية الثانية: دائمة.

(٩٤٧) وسيمة: جميلة.

وخلائق، فيها ما تحب الخلائق، ونحائز،(٩٤٨) لم يحز مثلها حائز، ومحاسن، ماؤها غير آسن،(٩٤٩) ومآثر جَدٌّ غير عاثر، ومفاخر، غفل عنها الأول ليستأثر بها الآخر، وبراعةُ لسانٍ ينسجم قِطارها،(٩٥٠) وشجاعة جَنان تضطرم نارها، وخِلالٌ جِلالٌ(٩٥١) عليك شواهد أنوارها تتوضح، ومساعي لديك كمائم(٩٥٢) نَوْرها تتفَتَّح. . وابْسُطْ يدك فقد فُوِّض إليك أمير المؤمنين بسطا وقَبضا، وارفع ناظرك فقد أباح لك رفعا وخفضا، واثبت على درجات السعادة فقد جعل لحكمك تثبيتا ودَحضا، واعقد حُبَي(٩٥٣) العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عَقْدًا ونقضا. وانفُذْ فيما أهَّلك له فقد أدَّى بك نافلة من السياسة وفَرْضا، وصَرَّف أمور المملكة فإليك الصَّرْف والتصريف، وثَقِّفْ أودَ(٩٥٤) الأيام فعليك أمانة التهذيب والتثقيف".

وإنما اخترت هذه القطعة من سجل أو عهد كتبه الفاضل سنة ٥٦٤ لأدل على أن خصائص فنه النثري كانت قد استوت وتهيأت له مبكرة، وقد استهل القطعة بذكر الإسناد والحديث كأنه يريد أن يحدث تورية، فهو لا يريد الحديث النبوي وإنما يريد ما سبق في العهد من حديث عن عم صلاح الدين وجهوده التي بذلها للخليفة الفاطمي،

---

(٩٤٨) نحائز جمع نحيزة: طبيعة.

(٩٤٩) آسن: متغير الطعم.

(٩٥٠) قطارها: قطرها ومطرها.

(٩٥١) جلال: عظام.

(٩٥٢) كمائم: جمع كميمة وهي غطاء النور والزهر.

(٩٥٣) حبي: جمع حبوة، وهي الثوب يديره الجالس حول ساقيه وظهره للاستناد عليه.

(٩٥٤) أود: اعوجاج.

obeikandl.com

وجعل لصلاح الدين إسنادا فيه لا من السند وإنما من المساندة والمساعدة، ومضي في توريا ته المتصلة بالحديث النبوي، فجعل قديم فخر صلاح الدين وحديثه مسندا جامعا، وكتب المساند النبوية معروفة ومنها الجامع الصحيح للبخاري، وقد جانس بين الحديث أي الكلام السابق وحديث بمعنى جديد والطباق واضح بين كلمتي قديم وحديث. وتتوالى سجعات قصيرة أقامها على الجناس الناقص وكان كلفا بجميع صوره. ويجانس بين خلائق بمعنى طباع والخلائق بمعنى الناس والتورية واضحة في كلمة الخلائق. وتتوالى جناسات ناقصة وتداخلها بعض التصاوير، فماء المحاسن غير آسن والجد أو الحظ غير عاثر. ويحاول الإغراب والإبداع في سجعه فيأتي بسجعة هي كلمة مفاخر تليها سجعة طويلة يداخلها طباق بين الأول والآخر. ويوغل في إغرابه وإبداعه، فيأتي بسجعتين تداخلهما في صدرهما سجعتان إذ يقول: "وبراعة لسان، ينسجم قطارها، وشجاعة جنان يضطرم نارها". ويعمد إلى التصوير البارع في السجعتين التاليتين فشواهد أنوار الخلال أو الخصال تتوضح، وكمائم نور المساعي وزهرها تتفتح. ويفزع إلى الطباق في السجعات الخمس التالية وقد تصنع أو تكلف في استخدامه للطباق بذكره المصطلحين النحويين: رفعا وخفضا، ولكنه تصنع مقبول، فقد استظهرهما في خفة وعذوبة.

ولعل فيما قدمنا ما يصور بوضوح خصائص القاضي الفاضل في كتابته الديوانية، وهي كتابة فيها روح مصر التي نشأ في دواوينها وصقل لسانه في رسائل كتابها من أمثال ابن الصيرفي والموفق بن الخلال، كتابة ليس فيها ثقل ولا تكلف بعيد، بل فيها انطلاق وسهولة مع الرونق وصفاء التعبير. وتتردد في الكتب التي ترجمت للقاضي

الفاضل أو عرضت لبراعته البلاغية عبارات مضيئة بحسنها البياني كقوله عن صلاح الدين وأسرته:

"أنتم- يا بني أيوب- أيديكم آفةُ أنفس الأموال، كما أن سيوفكم آفة أنفس الأبطال، ولو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليه أداهم،(٩٥٥) وقلَّدتم بيضَ أيامه صوارم،(٩٥٦) وأفنيتم شموسه وأقماره في الهبات دنانير ودراهم، وأوقاتكم أعراس إلا على الأموال فهي مآتم، والجود في أيديكم خاتم، ونَفسُ حاتم(٩٥٧) في نقش ذلك الخاتم".

والقطعة تمتلئ بالاستعارات والتشبيهات الرائعة، مع ما يحفُّ بها من الجناسات والطباقات، ومع ما صيغت فيه من العبارات الناصعة التي تلذ الألسنة والأفئدة. ومن هذا النسيج البديع قوله من رسالة في صفة قلعة شاهقة، اسمها كوكب:

"وهذه القلعة عُقاب في عِقاب،(٩٥٨) ونجم في سحاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأُنْملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قُلامة".

والجناس واضح بين عُقاب بضم العين وعقاب بكسرها، وقد استمر في تشبيهات وتصويرات بديعة، وقال نقاده: إن قوله: "كان الهلال له قلامة" أخذه من قول ابن المعتز في الهلال:

---

(٩٥٥) أداهم جمع أدهم: يريد خيولا سودا معدة للحرب.

(٩٥٦) صوارم: جمع صارم وهو السيف.

(٩٥٧) حاتم: جواد العرب المشهور.

(٩٥٨) عقاب بضم العين طائر جارح وبكسرها جمع عقبة وهي المرقى الصعب في الجبال.

obeikandi.com

مثل القلامة قد قدت من الظفر ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا

غير أن القاضي أضاف إلى القلامة إضافة بديعة بذكره الأنملة إذا خضبها الأصيل. ولعل في ذلك ما يشير إلى قدرته على مراعاة النظير في صياغاته، وذلك كثير في كتاباته على نحو ما ترى الآن حين ذكر القلامة ذكر معها الأنملة والخضاب. ومن أروع رسائله رسالته، التي كتب بها إلى الخليفة الناصر يبشره فيها بانتصار صلاح الدين على حملة الصليب في حطين وفتحه العظيم لبيت المقدس.

وللقاضي الفاضل كثير من الرسائل الشخصية، وسنقف عندها قليلا في غير هذا الموضع، ومرَّ بنا أن مخطوطة فصوص الفصول المحفوظة بدار الكتب المصرية تحمل مراسلات كثيرة بينه وبين ابن سناء الملك، وكان يتخذه ابنا روحيًّا له وذكرنا في غير هذا الموضع أن بها ملاحظات ومراجعات نقدية كثيرة.

محيي الدين(٩٥٩) بن عبد الظاهرة

هو عبد الله بن عبد الظاهر المصري من بيت علم وفقه وأدب، ولد سنة ٦٢٠ وبدأ يحفظ القرآن الكريم مثل لِداته ثم اختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين وأصحاب التاريخ والسير، وأحس بميل شديد إلى الأدب وجرى على لسانه الشعر، وأنس في

(٩٥٩) أنظر في محيي الدين بن عبد الظاهرة وترجمته ورسائله فوات الوفيات ١/ ٤٥١ وتاريخ ابن كثير ١٣/ ٣٣٤ وشذرات الذهب ٥/ ٤٢١ والنجوم الزاهرة ٨/ ٣٨ وحسن المحاضرة اللسيوطي ١/ ٤٧٠ و٢/ ٣٦٦ ونهاية الأرب: الجزء الثامن في مواضع مختلفة وصبح الأعشى (أنظر الفهرس وخاصة ١/ ١٥٦ و١/ ١٧٦ و٧/ ٣٥٦، ٣٦٦، ٨/ ٣٠٠، ١٠/ ١١٧، ١٦٣، ١٦٦ و١٤/ ١٣٩ وراجع كتابه تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون (نشر وزارة الثقافة) .

obeikandl.com

نفسه قدرة أدبية، فالتحق بالدواوين لعهد الأيوبيين، ولم يلبث أن أظله عهد المماليك ونرى نجمه يتألق في عهد الظاهر بيبرس، إذ يصبح رئيسا لكتاب الدست، ثم رئيسا لديوان الإنشاء، وتظل له هذه الوظيفة في عهد السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل حتى يلبي نداء ربه سنة ٦٩٢. وعنه كانت تصدر العهود والسجلات والتقاليد والمنشورات والتوقيعات نحو أربعين عاما، مما جعله يضع مصطلحات وظيفة ديوان الإنشاء لزمنه وبقية زمن المماليك، وكان ابنه فتح الدين على غراره مهارة بيانية، ورقى إلى وظيفة كاتب السر لعهد قلاوون وابنه الأشرف خليل. وهي أكبر وظيفة في الدولة حينئذ، وسبق أباه إلى رضوان ربه بعام فحزن عليه حزنا شديدًا.

وقد أشاد بمحيي الدين وبلاغته معاصروه أشادات رائعة، من ذلك قول النويري في نهاية الارب: "كان محيي الدين أجلّ كتاب العصر، وفضلاء المصر، وأكابر أعيان الدول، والذي افتخر بوجوده أبناء عصره على الأول، له من النظم الفائق ما راق صناعة وحسنا، ومن النثر الرائق ما فاق بلاغة ومعنى، فقصائده مدونة مشهورة، ورسائله بأيدي الفضلاء ودفاترهم مسطورة، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة، وطريقة في البلاغة أسهل طريق وفي الفصاحة أوضح محجَّة" ويقول ابن شاكر في كتابه الفوات عنه: "الكاتب الناظم الناثر شيخ أهل الترسل ومن سلك الطريقة الفاضلية في إنشائه". وجمع بعض رسائل القاضي الفاضل في كتاب سماه: "الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم".

وكان يستخدم في كتاباته السجع، وكثيرا ما يطيل السجعة الثانية ليضمنها ما يريد من المحسنات البديعية، وفي مقدمتها التصاوير والجناس والطباق، وكذلك ما يريد من

obeikandl.com

الاقتباسات القرآنية ومن حَلَّ بعض الأشعار ونثرها، مع حسن الألفاظ وعذوبة الكلم. وكان يرافق الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل في غزواتهم، ويرسل بوصفها لملك اليمن وغيره من أصحاب السلطان وللوزراء في مصر. ومن رسائله المهمة رسالته إلى الوزير بهاء الدين بن حنا، يصف له حروب بيبرس مع التتار وبني سلجوق واقتلاعه مدينة قيسارية من أيديهما مع ما أخذ في طريقه إليها من الحصون والبلاد، مصورا مسيرة الجيش المصري في جبال شامخة مذللا فيها طريقه لا يعوقه عن مقصده عائق، والرسالة طويلة في نحو خمس عشرة صحيفة مدونة في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى، وهي وثيقة تاريخية بحروب بيبرس للتتار والسلجوقيين في ذي القعدة من سنة ٦٧٢ وفيها يقول:

"سرنا لا يستقر بنا في شيء من المهالك قرار، ولا يُقْتَدح من غير سنابك الخليل نار، ولا نمُّر على مدينة إلا مرور الرياح على الخمائل في الأصائل والأبكار، ولا نقيم إلا بمقدار ما يتزيَّد الزائرين من الأهبة، أو يتزوَّد الطائر من النُّغْبة،(٩٦٠) تسبق وَفْدَ الرِّيح من حيث نَنْتحي، وتكاد مواطئ خيلنا بما تَسْحبه أذيال الصوافن(٩٦١) تمّحى، تحمل همَّنا الخيل العتاق، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق، وكلٌّ يقول لسلطاننا نصره الله:

نحن نبت الربى وأنت الغمام ... أين أزمعت أيهذا الهمام

---

(٩٦٠) النغبة: الجرعة.

(٩٦١) الصوافن: جمع الصافن وهو الفرس.

وبتنا هنالك ليلة نستحقر بالنسبة إلى شدَّتها ليلة الملسوع، وتتمنَّى بها العين هجمة هجوع، وأخذنا في اختراق غابات أشجار تخفي الرفيقَ عن رفيقه، وَتْشغله عن اقتفاء طريقه، يَنْبري منها كل غصن يرسله المتقدم إلى وجه رفيقه، كما يخرج السهم بقوة من منجنيقه، حولها مغائر أحجار كأنها قبور بُعْثرت، أو جبال تفطَّرت،(٩٦٢) بينها مخائض لا بل مغائص ما خرجنا منها إلا إلى جبال قد تمنطقت بالجداول وتعممت بالثلوج، وعميت مسالكها فلا أحد إلا هو قائل: فهل إلى خروج من سبيل أو إلى سبيل من خروج، تضيق مناهجها بمشي الواحد، وتلتفُّ شجراتها التفاف الأكمام على السواعد".

وعلى هذه الشاكلة يتدفق ابن عبد الظاهر في الرسالة دون أي عائق من لفظ غريب أو أسلوب ملتو، بل سيولة وعذوبة مع السجع الرشيق ومع ما يشاء من الجناسات والاستعارات دون أن نشعر بالكلفة أو بشيء منها، وفي صبح الأعشى رسائل وعهود له بديعة، منها عهد الظاهر بيبرس لابنه الملك السعيد وعهد قلاوون لابنه الملك الأشرف خليل، وفيه ينوه ابن عبد الظاهر بالأشرف على لسان أبيه قلاوون قائلا:

هو الذي بقواعد السلطنة أدرى وبقوانينها الأعرف، وعلى الرعايا الأعطف، وبالرعايا الأرأف، وهو الذي ما قيل لبناء ملك هذا عليُّه قد وهَىَ إلا وقيل هذا خير منه ومن أعلى بناء سعدٍ أشرف، والذي ما برح النصر يتنسَّم من مهابَّ تأميله الفلاح، ويتبسم ثغره فتتوسم الثغور من مبسمه النجاح، ويُقْسَم نوره على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلا وهو يشرئب إلى ملاحظة جبين عهده الوضاح. . والذي كم جَلا ببهيَّ

(٩٦٢) تفطرت: تشققت.

obeikandi.com

جبينه من بَهيم، وكم غدا الملك يحسن رُوائه وبمن آرائه يهيم، وكم أبرأ مورده العذب هِيمْ،(٩٦٣) ولا ينكر الخليل إذا قيل عنه أَبْرَاهيم".

والسجعات في هذا العهد تتوالى في مجاميع على حرف واحد أو رويٍّ واحد، قد يكون الفاء أو الحاء أو الميم كما في هذه القطعة، وقد يكون حرفا آخر كالدال أو التاء أو النون إلى غير ذلك من حروف تتعاقب فيها السجعات في خفة. وقد ورّى في السجعات الفائية حين ذكر فيها لفظ "أشرف" موريًا عنه عن الأشرف خليل، ولم يكتف بهذه التورية في اسمه فقد أضاف إليها تورية أخرى في لفظ أبراهيم بآخر القطعة، وقدم لذلك بذكر الخليل كأنه يريد إبراهيم عليه السلام، وهو لا يريده إنما يريد بالكلمة أنه أبرأهيما أي عطاشا أشد العطش. ومن ذلك قوله في رسالة إلى صاحب اليمن مبشرا بفتوح قلاوون لبعض حصون الصليبيين بالشام.

"تعطيه الملوك الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون، ويصطفي كرام أموالهم وهم صابرون لا مصابرون، وكم شكت منه حَماة تنبئ بشَكْوِها عن قلة الإنصاف، وكم خافته معَرّةُ وما من معرَّةٍ خاف، ومازالت أيدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جَوْر جواره تلك الحصون والصَّياصي،(٩٦٤) وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصي".

وواضح في أول هذه القطعة اقتباس محيي الدين بن عبد الظاهر لآية سورة التوبة: (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ). ويكثر الاقتباس لآي الذكر الحكيم

---

(٩٦٣) هيم: جمع أهيم وهو العطشان عطشا شديدا.

(٩٦٤) الصياصي: الحصون.

وألفاظه في كتاباته كما يكثر حل الشعر والاستشهاد بنصوصه وأبياته. وقد ورَّى في القطعة بذكر لفظة معَرّةُ الثانية من العار مقدما لها بذكر حماة والمّعَّرة وهما من مدن الشام. وورَّى أيضا في قوله: "وناهيك بمدمع العاصي" وهو إنما يريد نهر حماة المعروف باسم العاصي. ودائما نحس عنده العذوبة والسلاسة وكأنه يستمد من نبع فياض لا يغيض أبدا، على نحو ما نرى في قوله من رسالة يصف بها فتح قلاوون لطرابلس:

"صرف مولانا السلطان إلى طرابلس العنان، وسبق جيشه إليها كل خبر وليس الخبر كالعيان، وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد حرسته عيونها والمخاوف كلها أمان. . وفي خدمته جنود لا تستبعد مفازة. وكم راحت وغدت وفي نفسها للأعداء حزازة، فامتطوا بخيولهم من جبال لبنان تيجانا لها صاغتها الثلوج، ومعارج لا مرافق بها غير الرياح الهوج، وانحطت الجنود من تلك الجنادل انحطاط الأجادل،(٩٦٥) واندفعوا في تلك الأوعار اندفاع الأوعال،(٩٦٦) ولم يحفل أحد منهم بطريق لاصق، ولا جبل شاهق، فقال: هذا منخفض أو عال".

والكلمات والسجعات تنزلق عن اللسان في خفة إذ كانت ملكته الأدبية خصبة، فهي ما تزال ترفده بما يريد من الألفاظ التي تروق في السمع لا بسجعها فحسب، بل أيضا بجرسها وحسن انتخابه لها، وما يوفره لها من محاسن بديعة بقدر الحاجة دون تكثر يحيلها إلى تكلف شديد. وحقا كان يتصنع أحيانا لبعض مصطلحات النحو ولكنه لا يأتي بها إلا في الحين بعد الحين ما عدا رسالة اقترحت عليه أن تكون توقيعا لمدرس نحو

---

(٩٦٥) الأجادل: الصقور.

(٩٦٦) الأوعال: جمع وعل وهو تيس الجبل.

obeikandi.com

استهلها بقوله مداعبا: "حرس الله نعمة مولاي، ولازال كلم السعد من اسمه وفعله، وحرف قلمه يأتلف، ومنادَى جوده لا يرخَّم وأحمد عيشه لا ينصرف" ومضى فيها على هذه الشاكلة متصنعا لمصطلحات النحو، ولكن من الحق أنه أراد بها إلى الدعابة، وعلى نحو ما كان يبشر بالفتوح كان يبشر بوفاء النيل وله في ذلك رسائل بارعة يقول في إحداها:

"نِعَمُ الله وإن كانت متعددة، ومِنَحه وإن غدت بالبركات متردِّدة، ومِنَّته وإن أصبحت إلى القلوب متوددة، فإن أشملها وأكملها، وأجملها وأفضلها، وأجزلها وأنهلها، وأتمَّها وأعمَّها، وأضمَّها وألَّمها، نِعمة أجزأت المَنْ والمَنْح، وأنزلت في بِرك سَفْح المقطَّم أغزر سَفْح، وأتت بما يعجب الزرَّاع، ويعجز البرق اللمَّاع، ويُعِلّ(٩٦٧) القِطاع، ويُغِلُّ(٩٦٨) الأقطاع، ويأتي في الغد بأكثر من اليوم وفي اليوم بأكثر من الأمس، ويركب الطريق مجدًّا فإن ظهرت بوجهه حمرة فهي ما يعرض للمسافر من حر الشمس. . وبينا يكون في الباب إذا هو في الطاق، وبينا يكون الاحتراق،(٩٦٩) إذا هو في الاجتراء للإغراق، وبينا يكون في المجاري، إذا هو في السواري(٩٧٠)".

والتورية واضحة في كلمة سفح الثانية، إذ ليس معناها معنى سابقتها وهي سفح جبل المقطم إذ أراد الانصباب من قولهم سفح الماء إذا صبه. واقتبس من القرآن الكريم

---

(٩٦٧) يعل القطاع: يروى قطاع الأرض مرارا.

(٩٦٨) يغل الأقطاع: يجعل الضياع تعطي الغلة والثمار.

(٩٦٩) الاحتراق: قلة الماء.

(٩٧٠) السواري: يريد الأعالي.

obeikandl.com

قوله عز شأنه في سورة الفتح (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ) واقتباسه من الذكر الحكيم كثير في كتاباته كما أسلفنا. وتعليل ما يخالط النيل من الطمي بأنه نفس الحمرة التي تعرض للمسافر من طول سفره وتعرضه للشمس تعليل حسن يدل على عمق تخيله وطرافته. وتصويره لفيضان النيل وأنه سرعان ما يملأ مجرى النهر وتعلو أمواجه ويطفح عبابه ويتمادى طوفانه، فبينما يدخل سدة باب إذا هو في الطاق وأعلى الشرفات، وبينما تكون مصر قبل فيضانه في زمن الاحتراق والتعطش للماء إذا هو يخترق الآفاق فيها لإغراقها بمياهه العذبة، وبينما يكون في أسافل الأرض ومجاريها إذا هو في السواري وأعلى الأعالي.

ولم يكن محيي الدين بن عبد الظاهر كاتبا ديوانيا فحسب، فله رسائل شخصية سنلمُّ بإحداها، وأيضا كان مؤرخا، وعنه أخذ البرزالي وغيره من كبار المؤرخين لزمنه، واهتم في التاريخ بكتب السير، فكتب سيرة الظاهرة بيبرس، وهي أحد مصادر المقريزي في خططه، وكتب سيرة قلاوون بعنوان "تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور"، وكتب أيضا سيرة الأشرف خليل بعنوان "الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية" وله كتاب في خطط القاهرة ينقل عنه كثيرا المقريزي وكذلك القلقشندي في صبح الأعشى. ولعل فيما قدمنا من رسائله الديوانية ما يدل بوضوح على قدرته البيانية والبلاغية.

ابن[٩٧١] فضل الله العمري

هو شهاب الدين أحمد بن يحيي بن فضل الله العمري، من سلالة أسرة مصرية تنتسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وليت أسرته ديوان الإنشاء بمصر ودمشق نحو قرن من الزمان هو القرن الثامن الهجري، وقد وُلد لأبيه كاتب السر بدمشق سنة ٧٠٠ للهجرة وبها نشا، فحفظ القرآن الكريم، ثم أخذ يختلف إلى حلقات علمائها من أمثال ابن تيمية الفقيه الحنبلي المشهور وقاضي قضاة دمشق الشافعي شهاب الدين محمد بن المجد وشيخ الشافعية بدمشق برهان الدين بن الفركاح الفزاري وأخذ علم الأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهاني نزيل دمشق منذ سنة ٧٢٤ وبها ظل سبع سنوات وكان من أبرع علماء زمنه في العقليات، وأذن لابن فضل الله في الإفتاء على مذهب الشافعي. وأخذ شهاب الدين العربية عن كمال الدين بن قاضي شُهْبة وابن الزَّمْلكاني، أما الأدب فأخذه عن أبيه ورفيقه في ديوان الإنشاء الشهاب محمود وعلاء الدين الوداعي. ورحل إلى مصر في أثناء الطلب، وأخذ العربية عن شيوخها وعلمائها مثل ابن الصائغ الحنفي ونزيلها أبي حيان الأندلسي. وسمع الحديث على علمائها كما سمعه على حُفاظ الشام. ويبدو أنه نزع إلى العمل مع أبيه مبكرا في ديوان الإنشاء

---

(٩٧١) أنظر في ترجمة ابن فضل الله فوات الوفيات ١/ ١٢ والنجوم الزاهرة ١٠/ ٣٣٤ والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ١/ ٣٥٢ وصبح الأعشى وخاصة الجزء الحادى عشر والرابع عشر (أنظر الفهرس) وخطط المقريزي ١/ ٣٨٩ وحسن المحاضرة ١/ ٣٧١، ٣٩٤، ٢/ ٢٣٤ والشذرات ٦/ ١٦٠ والوافي ٨/ ٢٥٢ وتاريخ الأدب الجغرافي كراتشكوفسكي ١/ ٤١٠. وطُبع له الجزء الأول من موسوعته مسالك الأبصار وأنظر فيما تقدم في حديثنا عن النشاط الجغرافي بمصر وطُبع له كتابه التعريف بالمصطلح الشريف.

بدمشق، وتخرج فيه كاتبا بارعا. وكان إلى ذلك لا يزال يأخذ عن العلماء في زمنه بالشام ومصر، وكان أبوه يعمل أحيانا بالديوان في دمشق وأحيانا يعطل، فكان إذا عمل لزمه، حتى إذا استدعى الناصر محمد بن قلاوون أباه لكتابة السر بالقاهرة سنة ٧٢٩ تقلد معه هذه الوظيفة فكان هو الذي يقرأ كتب البريد ورسائله على الناصر، ونقلهما إلى دمشق في شعبان سنة ٧٣٢ ثم أعادهما ثانية إلى القاهرة مستندا إليهما كتابة السر ورياسة ديوان الإنشاء سنة ٧٣٣ ويبدو أنه كان حادَّ الطبع، ولم يتحاش عن إظهار هذه الحدة في مخاطبته للناصر، فتغير عليه وصرفه، وولى أخاه علاء الدين مكانه، وكانت منزلة أبيه عند الناصر قد عظمت، وطلب أن يرجع إلى دمشق فأجابه إلى طلبه، على أن تستمر له رياسة ديوان الإنشاء في جميع ديار السلطنة وأن يكون جميع الموظفين في تلك الدواوين نوابه، وسرعان ما لب نداء ربه. وعاد الناصر في سنة ٧٤٠ فرضي عن شهاب الدين وولاه كتابة السر بدمشق، ودخلها في المحرم سنة ٧٤١ وظل يلي وظيفته بها حتى طُلب إلى القاهرة سنة ٧٤٣ لكثرة الشكايات منه وشفع فيه أخوه علاء الدين، وقُبلت شفاعته وعاد إلى دمشق، وبارحها في سنة ٧٤٩ لقضاء فريضة الحج، وتوفي بمكة ونُقل تابوته إلى دمشق، ولم يكد يبلغ الخمسين من عمره.

وكان شاعرا كما كان كاتبا، نظم كثيرا من القصائد والأراجيز والمقطعات والدوبيت، غير أن شهرته الكتابية غطت على شهرته الشعرية، وقد أشاد بكتابته معاصروه من ذلك قول صلاح الدين الصفدي: "هو الإمام الفاضل البليغ المفوه الحافظ حجة الكتَّاب، إمام أهل الأدب، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلا، وتوسلا إلى غايات المعاني وتوصلا، يتوقد ذكاء وفطنة ويتلهَّب، وينحدر سيله مذاكرة وحفظا

ويتصبّب، ويتدفق بحره بالجواهر كلاما، ويتألق إنشاؤه بالبوارق المستعرة نظاما، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة، وتَنْدَى عباراته انسجاما وصياغة، وينظر إلى غرر المعاني من ستر رقيق، ويغوص في لجَّة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق، يكتب من رأس قلمه بديها، ما يعجز تروِّي القاضي الفَاضل أن يدانيه تشبيها. . صرف الزمان أمرا ونهيا، ودبرَّ الممالك تنفيذا ورأيا".

ولعل من الطريف أن ابن فضل الله جمع من كتاباته نماذج في جميع صور المكتبات الديوانية وضمنها كتابه النفيس: "التعريف بالمصطلح الشريف" وجعله في سبعة أقسام أولها في رتب المكاتبات إلى الخليفة العباسي بالقاهرة وعنه مع رسوم الكتابة إلى أمراء البلدان وراء السلطنة المصرية من الهند إلى الأندلس، وأيضا إلى نواب السلطنة والحكم خارج مصر. والقسم الثاني في العهود والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير إما من الخلفاء إلى السلاطين وإما من السلاطين إلى ولاة العهد. والتقاليد خاصة بكبار الموظفين والتواقيع لصغارهم والمراسيم لصغائر الأمور والشئون والمناشير خاصة بالأمراء والجند. والقسم الثالث خاص بنسخ الأيمان على العامة والولاة وكبار الموظفين وأهل الكتاب. والقسم الرابع في الأمان والهُدَن مع الأعداء نقض المعاهدات. والقسم الخامس في حدود المدن والبلاد وهو جغرافي. والقسم السادس في مراكز البريد ووسائله برا وبحرا. والقسم السابع في الآلات وخاصة آلات الحرب من سيف وغير سيف وكذلك آلات السفر وآلات الصيد وآلات الطرب وأيضا الحيوان الأليف والوحشي والطير، ويتسع هذا القسم للحديث عن المدن والحصون وأنواعها والأزمنة وفصولها والأنواء. وواضح أن الأقسام الأربعة الأولى هي التي دفعته لإعطاء النماذج

obeikandi.com

الكتابية المتصلة بموضوعاتها. أما الأقسام الثلاثة التالية فقد رأى معرفتها ضرورية لكتاب الديوان لأنها تتصل بأعمالها اتصالا قويا. واشتهر هذا الكتاب بعد ابن فضل الله واتخذه الكتاب إماما لهم وجعلوه نصب أعينهم في كتاباتهم الديوانية يحاكون نماذجه وأمثلته، واعتمد عليه القلقشندي في بيان رسوم الكتابة الديوانية، وما يصورها من أمثلة بليغة محكمة، من ذلك قوله في تقليد وزير ووصيته بما ينبغي عليه في وزارته:

"عليه بالكُفاة الأمناء، وتجنُّب الخونة وإن كانوا ذوي غَناء، وإياه والعاجز، ومن لو رأى المصلحة بين عينيه أَلْقَى بينه وبينها الف حاجز، وليطهِّرْ بابه، ويسهِّل حجابه، ويفكر فيما يَعُدَ أكثر مما قرب مقدما الأهَّم فالأهَمَّ من المصالح، وينظر إلى ما غاب عنه وحضر نظر المماسي والمصابح، ولا يستبدل إلا بمن ظهر لديه عجزه أو ثبتت عنده خيانته، ولا يدع من جميل نظره مَنْ صَحَّتْ لديه كفايته، أو تحققت عنده أمانته. وليصرفْ اهتمامه إلى استخلاص مال الله الذي نحن أمناؤه، وبه يشغل أوقاته وتمتلئ كالإناء آناؤه، فلا يدع شيئا يجب لبيت المال المعمور من مستحقه، ولا يتسَّمَّح في تخلية بشيء منه كما نوصيه أن لا يأخذ شيئا إلا بحقِّه".

وواضح أن ابن فضل الله لا يتكلف في كتابته، وكأنه- كما قال الصفدي- بحر يتدفق، وفي تضاعيف تدفقه ينثر جواهر المحسنات، وهي تواتيه طيعة، تارة يطابق وتارة يجانس في يسر دون أن نحس عنده بتصنع أو ما يشابه التصنع. ومن طريق وصفه للسيف في كتابه التعريف قوله:

"سَلَّ سيفا سال المَنون من لُعابه، وسار الموت في إهابه،(٩٧٢) وتناوم غِرارُه(٩٧٣) ملء جفنيه فما هجع، وتناوب(٩٧٤) للوثوب للمهج فما رجع، وتباكى على من قتل فجرت دموعه دماء، وتحَّرق على من سلم فتوقّدت ضلوعه نارا وترقرقت مآقيه ماء".

وهي كلمات قصار ولكنها مليئة بالاستعارات والتشخيصات المتلاحقة، وفيها الجناس والطباق وكأنهما غير ملحوظين، لما تجريان فيه من سهولة اللفظ وعذوبته. وله في وصف قدح أو كاس: "تكَّون من جوهر مكنون، وتجسَّد من هواء مظنون، واتُّخذ خِدْرًا لابنة العنب،(٩٧٥) وطاف به الساقي فأصبح منه في راحة وهو في تعب، قَهْقَه عليه الإبريق فصدح، وطار منه شرار المدام فقيل: قَدح".

والقطعة مثل سابقتها زاخرة بالاستعارات والصور الطريفة. مع جناسات وطباقات بديعة ومع جمال الجرس والمهارة في انتخاب اللفظ، وقد ختمها بكلمة قدح والتورية واضحة. فهو لا يريد ما يتبادر من أنه يريد القدح الذي يصفه، إنما يريد الفعل الماضي قدح أي قدح الشرر وأذكاه من قولهم قدح النار من الزند.

ولابن فضل الله العمري بجانب رسائله الديوانية رسائل شخصية قليلة وذكر له مترجموه نحو عشرة كتب، منها التعريف بالمصطلح الشريف الذي وصفناه. ومنها فواصل السمر في فضائل آل عمر، ومنها صبابة المشتاق في مجلد في مدح النبي صلى الله

---

(٩٧٢) إهابه: جلده.

(٩٧٣) غرار السيف: حده.

(٩٧٤) تناوب الأمر: قام به مرة بعد مرة.

(٩٧٥) الخدر: البيت. ابنة العنب: الخمر.

obeikandl.com

عليه وسلم. وأهم كتبه دون ريب كتابه "مسالك الأبصار" وقد نشر الجزء الأول منه وهو خاص بالديارات، وهو في أكثر من عشرين مجلدا، وهو مقسوم إلى قسمين كبيرين: قسم للأرض وأقاليمها وبحارها وطرقها أو مسالكها، وقسم للممالك في العالم الإسلامي وغيره وسكان المعمورة، وبه فصول طويلة عن الكتاب والشعراء في العالم العربي بمختلف أقطاره، وعادة يضع مقدمة مسجوعة لكل كاتب وشاعر ثم يختار للكاتب نماذج من رسائله وللشاعر نماذج من شعره، وبه مقتبسات من كتب سقطت من يد الزمن، ومن خير ما احتفظ به تراجمه لشعراء صقلية، وكذلك معلوماته الجغرافية والتاريخية عنها. وبالكتاب مفاخرة طريفة بين المشرق والمغرب تمس حضارتيهما ومن كان بهما من أفذاذ العلماء والأدباء.

obeikandl.com

٢

الرسائل الشخصية

تموج كتب الأدب والتراجم بكثير من رسائل الأدباء والكتاب المصريين الشخصية والإخوانية في التهنئة والتهادي والشكر والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية. وعادة معانيها محدودة، ولكن أصحابها يحاولون إظهار براعتهم بإطالتها وتحبير عباراتها ونشر زخارف البديع ومحسناته عليها حتى تروق من تُرسل إليهم وتبلغ من التأثير فيهم المبلغ المنشود. وممن برعوا في تدبيجها وكتابتها في أيام الفاطميين عبد المجيد بن أبي الشخباء العسقلاني الكاتب الديواني لزمن الخليفة المستنصر، وسنخصه بحديث مفرد، وكان لا يكاد يقل عنه إحسانا في تلك الرسائل سبطه أو ابن ابنته الحسن[٩٧٦] بن زيد الأنصاري الكاتب مثله في الدواوين الفاطمية، وكان جده لأبيه شاعرا، وهو علي بن إسماعيل، وكان أيضا فقيها ولى قضاء الأردن للفاطميين، ويقول السلفي في معجمه: لم يكن له نظير في الأدب بقطره سوى ابن أبي الشخباء، وقتلهما بدر الجمالي وزير المستنصر. والحسن بن زيد بذلك سليل قتيلين وكأنما كُتب عليه أن يقتل مثلهما، وتولى إثم ذلك الحسن بن الخليفة الحافظ (٥٢٤- ٥٤٣) في أوائل خلافة أبيه لأبيات في هجائه دسها بعض معاصريه عليه، وكأنما أراد القدر أن يثأر له وكان الحسن قد استبد بتنفيذ الأمور دون أبيه فدس عليه السم في طعامه فمات لسنة ٥٢٨.

---

(٩٧٦) أنظر في ترجمة الحسن بن زيد الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/ ٦٧ وما بعدها والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢٣٧ ومعجم السلفي ص ٢٤٨.

obeikandi.com

وواضح أن الحسن بن زيد- كما يقول ابن سعيد- "عريق النسب، في صناعة الأدب، يمت إليها بأوفى تمام، ويضرب فيها بأخوال وأعمام" ويقول العماد الأصبهاني: "وصفه القاضي الفاضل وأثنى على فضله، وأنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله". واحتفظ العماد له في خريدته بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية، من ذلك قوله في رسالة إلى صديق يهنئه بالبرء من مرضه.

"إذا قدم الوداد، وصح الاعتقاد، وصفت الضمائر، وخلصت السرائر، حل الإخاء المكتسب، محل أخوة النسب، وصار المتعاقدان على الإيثار، والمتاحابان على بعد الدار، متساهمين فيما ساء وسر، ومتشاركين فيما نفع وضر، وتلك حالي وحال حضرة مولاي فإني وإياها كنفس قسمت على جسمين، وروح فُرقت بين شخصين، فأما ألمها فقد مضى وأزعجني، وأما برؤها فقد سرها وأبهجني".

ومهارته في صياغة أسجاعه واضحة فعباراتها تتوازن وتتعادل تعادلا دقيقا، وكأن كل كلمة في السجعة الثانية تعانق أختها في السجعة الأولى في عذوبة ونصاعة وسلاسة وطلاقة. ومن كتاب له في تعزية:

"الخطب الحادث، فادح كارث،(٩٧٧) كادت له القلوب أن تتبرأ من أضالعها، والعيون أن تتعوض بدمائها من مدامعها، والفصحى أن يدرع(٩٧٨) جلباب الدجنة، والحوامل أن تجهض بما في بطونها من الأجنة. وإن المنية حوض كل الناس وارده، ومنهل كل الخليقة قاصده، لا يسلم منها ملك نافذ الأمر. . ولا فقير خامل الذكر".

---

(٩٧٧) كارث: محزن.

(٩٧٨) يدرع: يلبس. الدجنة: الظلمة.

obeikandl.com

وتحمل القطعة نفس الصياغة السالفة بكل ما تتسم به من اكتمال الإيقاع في الألفاظ بين السجعات وحسن الانتخاب للألفاظ والكلمات.

وكان يعاصر الحسن بن زيد الشاعر ظافر الحداد الذي مرت ترجمته بين الشعراء، وكانت قد انعقدت صداقة بينه وبين أبي الصلت أمية بن عبد العزيز نزيل الإسكندرية، وكان قد بارحها إلى المهدية بتونس سنة ٥٠٦ ولم يصله من ظافر كتاب فأرسل إليه يعاتبه، ومن قوله يجيبه عن كتابه(٩٧٩):

"فضضت الكتاب عن رسالته التي يهيج قشيبها،(٩٨٠) ويضوع(٩٨١) طيبها، ولا ينزف قليبها(٩٨٢)ـ فخلت أني أختال أي اختيال في حلل الشباب، وأذكر الأحباب، وأرشف الرضاب،(٩٨٣) من الثنايا العذاب، بعد الصد والاجتناب:

ذكرت به عهدا كأن لم أفز به وعيشا كأني كنت أقطعه وثبا

ثم نزهت ناظري، وجلوت خاطري، ببدائع ما تضمنه الكتاب، من العتاب، حتى وددت أني أجدد كل يوم ذنبا، يوجب منه عتبا، كي أقطف منه مثل تلك الأزهار، وأجني مثل تلك الأثمار، فما أخصبها رياضا، وأعذبها حياضا، وأشرفها أجساما وأعراضا".

---

(٩٧٩) أنظر الرسالة في ديوان ظافر.

(٩٨٠) قشيب: جديد.

(٩٨١) يضوع: يفوح.

(٩٨٢) قليبها: معينها.

(٩٨٣) الرضاب: الريق.

obeikandl.com

وظافر يعني في رسالته بسجعاته، ويوفر لها كل ما يستطيع من جمال اللفظ وحسن الجرس، حتى تقع من نفس أمية الموقع الذي يريده من بلاغة القول وروعة البيان. وإذا مضينا إلى زمن الأيوبيين لقينا القاضي الفاضل أهم كتابهم يدبج كثيرا من الرسائل الإخوانية أو الشخصية واقتطف منها محيي الدين بن عبد الظاهر باقات كثيرة في مختاراته من رسائله التي سماها "الدار النظيم من ترسل عبد الرحيم" ومن قوله في إحداها يصف لأحد أصدقائه دمشق:

"إني وصلت إلى دمشق المحروسة حيث شرد بردها، وورد وردها، واخضر نباتها، وحسن نعتها، وصفا ماؤها، وضفا(٩٨٤) رداؤها، وتغنت أطيارها، وتبسمت أزهارها، وافتر(٩٨٥) زهر أقحوانها فحكى ثغور غزلانها، ومالت قضب بانها، فانثنت تثنى ولدانها. فلما قربت من بساتينها، ولاح لي فسح ميادينها، وتوسطت جنة واديها، ورأيت ما أودعه الله العظيم فيها، سمعت عند ذلك حماما يغرد، وهزارا(٩٨٦) يشد ويردد، وقمريا(٩٨٧) ينوح، وبلبلا بأشجانه يبوح".

وأسلوب القاضي الفاضل واضح في هذه القطعة لا بأسجاعه فحسب وما يبلغ فيها من اكتمال الجرس والإيقاع بين أوائلها وتواليها، بل أيضا بما يوشي به كلامه من الاستعارات البديعة وزخارف الجناسات، وكان ما يزال يضيف إلى مثل طبقاته

---

(٩٨٤) ضفا: سبغ.

(٩٨٥) افتر: تفتح.

(٩٨٦) الهزار: العندليب.

(٩٨٧) القمري: ضرب من الحمام المطوق حسن الصوت.

وتورياته الرشيقة وما عرف به من العناية بمراعاة النظير. وكثرت المراسلات بينه وبين ابن سناء الملك وأبيه القاضي الرشيد، مما أتاح لابن سناء الملك أن يجمع منها كتابا يسميه "فصوص الفصول وعقود العقول"، وتحتفظ دار الكتب المصرية بمخطوطة منه، وهو مقسوم قسمين: قسم لمراسلات القاضي الفاضل وابن سناء الملك وقسم لمراسلات القاضي الفاضل مع أبيه، وفيه مراجعات كثيرة بين الفاضل وابن سناء الملك تتصل بنظرات له ونقد لبعض أبيات من قصائده. وحري بنا أن نذكر كثرة استشهاد الفاضل في رسائله الشخصية بالشعر حتى ليروي له القلقشندي في الجزء الأول من صبحه(٩٨٨) رسالة موزعة بين كلمات نثرية تليها أبيات شعرية، ورسالة ثانية موزعة بين كلمات وشطور أبيات. ومن كتاب الديوان حينئذ البارعين في تحبير الرسائل الشخصية الأسعد بن مماتي، وسنترجم له عما قليل.

ونمضي في زمن المماليك فنجد الأدباء من كتاب وشعراء يتبادلون رسائل شخصية كثيرة، من ذلك رسالة بعث بها محيي الدين بن عبد الظاهر سنة ٦٥٣ إلى الشاعر ابن النقيب الذي مرت ترجمته، وقد بلغه أن شخصا عابه في مجلسه وأزرى به وبقدرته الكتابية، وكان لا يزال شابا في نحو الثلاثين من عمره، ويبدو أنه عرف أن ابن النقيب رد على عائبه، فكتب إليه يهجو هذا العاتب ويشكره على جميل رده عليه، وهي رسالة طويلة،(٩٨٩) جعل عنوانها "التواضع" وقد مضى فيها يصور حملة هذا العائب عليه ثم

---

(٩٨٨) صبح الأعشى: ١/ ٢٧٦.

(٩٨٩) أنظرها في نهاية "تمام المنون في شرح رسالة ابن زيدون" للصفدي.

obeikandi.com

أخذ يعنفه تعنيفا شديدا، وأنهاها بالدعاء لابن النقيب والدعاء على عائبه بالويل والثبور، ونلم بأطراف منها، يقول:

"إن فلانا غض مني. . وزعم أن إناء إبائي غير مفعم،(٩٩٠) وبناء مجدي غير محكم، وأن جوارح إجادتي جريحة، وقرائح ارتجالي قريحة،(٩٩١) وأن صدور المجالس تنكر إقدام أقدامي، وبطون الطروس لا تلقح بأقلامي، وأني لا أعد في جملة الكتاب، وإذا دخلوا من أبواب متفرقة للتكريم لا أدخل معهم في باب، والذي أقوله له مخاطبا، وأومي(٩٩٢) به إليه مجاوبا: ما كل الأفاعي تعبث بها الأنامل، ولا كل المراعي تنصب بها الحبائل، ولا كل زخار(٩٩٣) يخاض، ولا كل جناح يهاض، ولا كل جامح يراض، ولا كل سابغة تفاض(٩٩٤). ولا يشر الزناد الواري(٩٩٥) قدح القادح، كما أنه لا يضير النجم الساري نبح النابح".

والرسالة على هذه الشاكلة من السجع الموقع اللحن تلحينا حسنا، مع توشيته بزخارف الاستعارات ومحاسن الجناسات، وقد ورّى في كلمة "قدح القادح" مع ذكر الزند الواري فلم يرد بها قدح القادح للزند طلبا لإخراج النار منه، وإنما أراد ذم الهاجي، من قولهم: قدح في عرض أخيه إذا عابه وثلبه.

---

(٩٩٠) مفعم: مليئ.

(٩٩١) قريحة: جريحة.

(٩٩٢) أومي: أشير.

(٩٩٣) زخار: النهر الزخار: المليء الطامي.

(٩٩٤) تفاض: تكون سابغة ضافية.

(٩٩٥) الواري: المتقد.

obeikandi.com

وتكثر في الرسائل الشخصية حينئذ تقريظات الأدباء والشعراء، ولعل شاعرا لم يكثر تقريظ شعره ومصنفاته كما قُرظ ابن نباتة. ومر في ترجمته أن له كتابا سماه "سجع المطوق" ترجم فيه لكل من قرظوا كتابه "مجمع الفوائد". ولتلميذه برهان الدين القيراطي الذي مرت ترجمته بين الشعراء تقريظ طريف لشعره ونثره، ومن قوله فيه(٩٩٦):

"لا غرو أن فضح بديع(٩٩٧) الزمان بلفظه البديع، وأزهرت الأوراق بمنثور رسائله التي كل فصل منها ربيع، وتبارك الذي جعل في سماء دوحته لشمس بلاغته بروجا، وأعلى همه التي لا ترضى الشهب جيادا والأهلة سروجا. . وقد زهت أمداحه المؤيدية(٩٩٨) فأصبحت بيوته المرفوعة (ذات العماد) وراقت محاسنه التي (لم يُخلق مثلها في البلاد). . وطالما سرح الناظر في بستانها نظره، ورام(٩٩٩) ابن سكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباتي فوجدها مسكره،(١٠٠٠) وعلم المتنبي أن هذا خاتم الأدباء لا محالة، والمترسل الذي نهض دونه بأعباء كل رساله".

والتقريظ زاخر بالاقتباس لآي القرآن الكريم وألفاظه كقوله في مديح أبيات ابن نباته إن بيوته المرفوعة أصبحت ذات العماد. وفي كلمة بيوت توريـة إذ لا يريد بيوت الشعر من الخيام التي ترفعها الأعمدة أخذا من قوله تعالى في سورة الفجر (ألم توريـة إذ

---

(٩٩٦) خزانة الأدب المصري للحموي ص ٥٤٧.

(٩٩٧) بديع الزمان: صاحب المقامات والرسائل المشهورة.

(٩٩٨) المؤيدية: يريد أمداحه في المؤيد (أنظر ترجمته) .

(٩٩٩) ابن سكرة: شاعر بغدادي ماجن معاصر للمتنبي.

(١٠٠٠) مسكرة: مغلقة.

obeikandl.com

لا يريد الشعر من الخيام التي ترفعها الأعمدة أخذا من قوله تعالى في سورة الفجر (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) أي أنهم كانوا أهل خيام وأعمدة، وهو لا يريد ذلك وإنما يريد بيوت شعر ابن نباتة أو أبياته. وأكمل في العبارة التالية وصف القرآن في السورة نفسها لعاد بقوله: (التي لم يخلق مثلها في البلاد). وراعي النظير مراعاة دقيقة حين ذكر ابن سكرة فذكر معه القطر النباتي يريد شعر ابن نباتة الحلو. وحين ذكر المتنبي أشار إلى ما قيل من تبؤه وأنه نهض عنه بأعباء كل رسالة ونباتة الحلو. وحين ذكر المتنبي أشار إلى ما قيل من تنبؤه وأنه نهض عنه بأعباء كل رسالة ومعروف أنه لم يثبت تنبؤ المتنبي تاريخيا غير أن القيراطي رأى استغلال ذلك في جلب ما يخدم غرضه الاستدعاءات، إذ كان الأدباء من الكتاب والشعراء يستدعي بعضهم بعضاً للمشاركة في مجالسهم وما بها من أنس ومدام ومن رفاق وصحاب. ولبدر الدين بن الصاحب المتوفى سنة ٧٨٨ للهجرة رسالة[١٠٠١] طويلة أرسل بها إلى فخر الدين بن مكانس يدعوه لمجلس أنس وشراب، واصفا له ما يستمتع به معه من خمر معتقة، وكأنه كان من المدمنين عليها في غير تحرج، وله يقول:

"هل لك- بسط الله آمالك، وضاعف نعيمك ودلالك- في عذراء مصونة، كالدرة المكنونة، فتانة مفتونة، كأن على خدها فوق ورده ياسمينة. . لها من ذاتها طرب يغني عن المزامير، بلقيسية الجمال لها (صَرْحٌ ممرَّد من قَوارير) ليلها من حسنها نهار، وضوء وجهها ليد لامسها سوار، تلثمت بالصباح، وتلطفت حتى مازجت الأرواح، أديمها كلما تعتق يغلو، ووردها كلما مر يحلو، أيامها أعياد، وأوقاتها أقوات القلوب والأكباد.

(١٠٠١) مطالع البدور للغزولي ١/ ١٥٢ والأدب في العصر المملوكي للدكتور محمد زغلول سلام ص ١١.

obeikandi.com

من "القاصرات الطرف" في كل قصر وهي على الإطلاق ذهبية العصر. . لا تزال الحوادث ساحتها، ولا يعرف التعب من صافح راحتها، حمراء تخلع ثوبها على الندمان، بل تكاد تطبق عينها على الإنسان".

وهو ينثر في الرسالة كثيرا من التصاوير مع القدرة البديعة على صياغة السجع والاقتباس فيه أحيانا من لفظ القرآن الحكيم كقوله موريا عن دن الخمر الزجاجية بما جاء في سورة النمل من وصف الصرح في قصر سليمان عليه السلام الذي شمرت بلقيس ملكة سبأ ثوبها حين دخلته إذ (حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ) أي من زجاج شفاف لا يحجب ما وراءه. ووصف بدر الدين بن الصاحب الخمر التي دعا ابن مكانس إليها بأنها من القاصرات الطرف اللائي لم يمسهن أحد، أخذا للكلمة من الذكر الحكيم. ولم يلبث أن قال إنها ذهبية العصر. والتورية واضحة إذ لا يريد أن عصرها ذهبي كما يقال عصر هرون الرشيد الذهبي مثلا وإنما يريد أنها صفراء اللون حين تعصر من عنبها وكرمها. وفي السجعتين التاليتين بآخر القطعة توريتان واضحتان، فهو لا يريد بلفظة "راحتها" كفها كما تشهد لذلك كلمة صافح، وإنما يريد الخمر نفسها إذ تسمى راحة. وبالمثل لا يريد في السجعة التالية بالإنسان العين وسوادها وإنما يريد الإنسان الحقيقي الذي يحتسيها.

وظلت الرسائل الشخصية تتداول بين الأدباء طوال الحقبة العثمانية، ودخلها غير قليل من التكلف والتصنع. ونسوق قطعة حينئذ من رسالة محمد بن أبي الحسن البكري

الذي مرت ترجمته، أرسل بها إلى النور العسيلي ليتسلى بمجلسه في منتزه نضر يلتقي في شاطئه ماء النيل وقت فيضانه بخضرة الزروع الزاهية، وفيها يقول[١٠٠٢]:

" سيدنا البر الذي يجري بحر الفضائل من بره، ويعذب الورد والصدر بما يصدر من صدره، ويفيض إحسانه نهرا لراجيه وآماله، وتبتدر الأنام لتلتقي تيار أنامله، وتتزاحم على سيف[١٠٠٣] زخار علومه، تزاحم رقاب أعدائه على سيفه وخصومه. . ومدينة بولاق هي مجتمع البحور، ومدار فلك السرور، بفلك الحبور، طفحت بالنيل لا جزر عن الجزر مده المديد، واستلت سيف النهر لقطع حروف الجروف من أقصى الصعيد".

والرسالة تجري على هذا الصورة من التكلف الشديد كما يلاحظ في السجعات الأخيرة، وقد تصنع فيها لذكر مصطلحات الفلك والعروض والنحو. ولمحمد الطيلوني من كتاب القرن الحادي عشر الهجري وشعرائه رسالة[١٠٠٤] هجا بها القاضي عمر المغربي هجاء أراد به إلى الفكاهة والضحك من مثل قوله:

"يا من ثوبه رث، وحديثه غث، يا كثير النباح، يا خائبا في الغدو والرواح، يا تارك السنة والفرض، يا من سعى بالفساد في الأرض، يا مهبط الدواهي، وتابع الغي

(١٠٠٢) ريحانة الأنبا للخفاجي (طبعة الحلبي) ٢/ ٢٢٩.

(١٠٠٣) سيف: شاطيء.

(١٠٠٤) نفحة الريحانة للمحبي (تحقيق عبد الفتاح الحلو طبعة الحلبي) ٤/ ٦٠٥.

obeikandl.com

والملاهي. . يا كثير الشكوى، يا أثقل من رضوى،[١٠٠٥] يا موت الحبيب وطلعة الرقيب. . يا أثقل من المكتب على الصبيان، ومن كرا[١٠٠٦] الدار على السكان".

والرسالة طويلة اقتطف منها المحبي مقتطفات في نحو سبع صفحات أتبعها بقصيدة هجاء على غرارها للشهاب الخفاجي مؤلف ريحانة الألبا. وتظل المحسنات البديعية بارزة في الرسائل، ولكنا نشعر في العبارات بضعف الصياغة، وقلما نشعر بعاطفة فياضة أو إحساس مرهف أو معنى دقيق. وحري بنا أن نقف عند بعض النابهين من كتاب هذه الرسائل الشخصية على مدار العصر ومختلف أزمنته.

ابن[١٠٠٧] أبي الشخباء

وقيل ابن الشخباء، هو الحسن بن محمد بن عبد الصمد العسقلاني، ولا نعرف متى انتقل هو أو أسرته العسقلانية إلى القاهرة، ويبدو أنه التحق مبكرا بدواوين الدولة الفاطمية لعهد الخليفة المستنصر (٤٢٧- ٤٨٧ هـ) وتخرج فيها على من كان يعمل بها من كبار الكتاب، ولمع اسمه فيها وتألق، غير أننا لا نمضي إلى سنة ٤٨٢ حتى نراه يُقْتَل بسجن مصر المسمى خزانة البنود، وأكبر الظن أن بدرا الجمالي وزير المستنصر هو الذي أمر بقتله كما أمر بقتل صهره القاضي إسماعيل بن علي كما مر بنا آنفا في الحديث عن حفيدهما الحسن بن زيد.

(١٠٠٥) رضوى: جبل بالمدينة.

(١٠٠٦) كرا: أجر.

(١٠٠٧) أنظر في ابن أبي الشخباء معجم الأدباء لياقوت ٩/ ١٥٢ والذخيرة لابن بسام (طبع الدار العربية للكتاب بتونس القسم الرابع ـ المجلد الثاني) ص ٦٢٧ وابن خلكان ٢/ ٨٩.

obeikandl.com

وكان ابن أبي الشخباء شاعرا بارعا كما كان كاتبا بارعا، ولـذلك لُقـب بالمجيـد ذي الفضيتين، وفيه يقول العماد: "المجيد مجيد كنعته، قادر على ابتـداع الكـلام ونحتـه، لـه الخطب البديعـة، والملـح الـصنيعة"، ويقـول يـاقوت عنـه: "أحـد البلغـاء الفـصحاء والشعراء، له رسائل مدونة مشهورة قيل إن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني منها استمد، وبها اعتد. . كتب في ديوان الرسائل للمستنصر صـاحب مـصر. . إلا أن أكثـر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء وأمراء زمانه" ويقول عنه ابن خلكان: "صاحب الخطب المشهورة، والرسائل المحبرة، كان من فران النثـر، ولـه فيـه اليد الطولي". وبدون ريب كان أبرع كاتـب قـاهري في القـرن الخـامس الهجـري، كـما تشهد رسائله الديوانية والشخصية، واحتفظ يـاقوت وابـن بـسام في الـذخيرة بطائفـة كبيرة منها، وأكثرها رسائل شخصية بديعة، من ذلك قوله في رسالة استعطاف:

"المودات إذا كانت متينة العقود، صـادقة المـشهود، موضـوعة عـلى أصـل عريـق، وأساس وثيق، لم تخترمها الشبهة المرمضة،(١٠٠٨) ولم تزلزلها الأباطيـل المعترضـة، وإن تناقلتها ألسن مختلفة، وعلتها برود من اللفظ مفوفة،(١٠٠٩) ولما رأيت زيارة مولاي قد صارت مرقعة، وجنوب(١٠١٠) مودته قد عادت مروعة، وصرت أرى قوله متناقـضا، وماء البشر من وجهه غائصا، من بعد ما عهدته:

تنبي طلاقة وجهه عن وجهه فتكاد تلقى النجاح قبل لقائه

(١٠٠٨) المرمضة: الموجعة.

(١٠٠٩) البرود المفوفة: الثياب الرقيقة المخططة.

(١٠١٠) الجنوب: ريح لينة كالنسيم، والاستعارة واضحة.

obeikandi.com

وضياء وجه لو تأمله أمرؤ صادى الجوانح[١٠١١] لارتوى من مائه

لم أتجاسر على سؤاله عن العلة خوفا أن يعيب علي الارتياب بوده، ويتطرق سوء الظن على عهده، فسألت من يعلم دفائنه، ويخبر ظاهره وباطنه، فأخبرني أن بعض الناس- ولم يسمه- نقل إليه عني فشن الغارة على وفائه، وزلزل أواخي[١٠١٢] وده وإخائه، فقلت: عتب، ولله ولا ذنب، وشكاية ولا نكاية،[١٠١٣] وأنا أحاكم مولاي إلى إنصافه، لا إسعافه، وعدله، لا فضله، وما كان أجدره برفض قول الماحل،[١٠١٤] وتغليب الحق على الباطل. . والآن فقد أوضعت وأجفت،[١٠١٥] وتألفت مولاي واستعطفت، فإن عادت ظلال وده مديدة، وحبال كرمه محصوفة[١٠١٦] جديدة، فحسن بتلك الشمائل، أن تجمع شمل الفضائل".

والسجعات تنزلق عن الفم بخفة ورشاقة، تشهد لابن أبي الشخباء بأنه كان كاتبا مجيدا حقا، وأن الكلم كان يطاوعه، ليحيله درا مختارة. وكان يزين سجعاته بمحسنات البديع من جناس وطباق. وتكثر عنه الاستعارات المبتكرة الطريفة، وكان يعرف كيف يغوص عليها ويستخرج لآلئها النفيسة من أصدافها البراقة، وطبيعي للقاضي الفاضل

(١٠١١) صادي الجوانح: عطشان.

(١٠١٢) أواخي:أواصر

(١٠١٣) نكاية: غلبة وقهر.

(١٠١٤) الماحل: الساعي بالنميمة.

(١٠١٥) أوضع: سار سيرا سريعا، ومثلها أوجف.

(١٠١٦) محصوفة: محكمة متينة.

obeikandl.com

وللكتاب من بعده أن يعنوا بحفظ كلامه ويستحضروه فيما يكتبون ويصوغون. وله من رسالة يعاتب فيها بعض القواد.

"رأيت فلانا عند نظرته لي بالأمس قد قطب(١٠١٧) حاجبيه، وزعزع مناكبه، فقلت: ماله؟ أأنزل إليه وحي، أم عصب(١٠١٨) به أمر ونهي، أم قل عقله فعق نفسه وظلمها، وجهل مقادير الأشياء وقيمها، واعتقد أن الدنيا طوع حكمه، والفطن صائب فهمه، أم رأى الملائكة المقربين تتشفع به، والحور العين(١٠١٩) تشكو لاعج حبه، وثمار الجنة تدلت إلى يده، ونار جهنم تقتبس من زنده، والكوثر يمد من معيبه، والسموات مطويات بيمينه".

وهو عتاب مرير لهذا القائد الذي شمخ بأنفه عليه، وتعالى واستكبر استكبارا، فمضى يهزأ به ويسخر منه سخريات متعاقبة، فهو ليس نبيا مرسلا. ولا آمرا ناهيا، بل هو جاهل مغرور، لا يعرف قيم الناس ولا أقدارها، وكأنما ظن أنه الحاكم بأمره وأن عقله مجمع الفطن، بل لكأنما توهم أنه نبي تتشفع به الملائكة، وأن الحور العين تشكو تباريح حبه، وأن ثمار الجنة مد يده، ونار جهنم تقتبس من زنده الواري المضطرم، ومن معينه يستمد نهر الجنة، أو أحد أنهارها: الكوثر. بل لكأنما توهم نفسه رب الكون، وخال السموات مطويات بيمينه. وعلى هذا النحو تتولى سخرياته، يطعن بها هذا القائد في الصميم، وفي آخر القطعة اقتباس واضح لآية سور الزمر: (وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ

(١٠١٧) قطب: عبس وضم حاجبيه.

(١٠١٨) عصب به: ضم إليه.

(١٠١٩) العين: جمع عيناء: واسعة العين جميلتها.

obeikandi.com

بِيَمِينِهِ). ويكثر هذا الاقتباس لآيات القرآن الكريم وألفاظه في رسائله، كما يكثر الاستشهاد بالشعر وإنشاده فيها مازجا له بكلامه. وكل ذلك وما تقدم من استخدامه للمحسنات البديعية وضعه الكتاب المصريون بعده شعارا لهم وسننا في رسائلهم. وله من رسالة في هجاء مضيف ومائدته.

"ولجت منزلا قد استعار من قلب العاشق حرا ورهجا(١٠٢٠) ومن أخلاق مالكه ضيقا وحرجا، كأنما زفرت فيه النار، ونقط على جدرانه بالقار، فجلست طويلا إلى أن حضر الإخوان، وقدم الخوان،(١٠٢١) فرأيت أرغفة قد أحكمت في الصغر والإلطاف، ولم تتعوذ(١٠٢٢) قط من الأضياف. . وثلاثة صحاف، واسعة الأكناف، بعيدة الأوساط من الأطراف، قد جعل في قرارة كل منها ما لا يدفع السغب،(١٠٢٣) ولا تجده اليد إلا بالتعب، فجلنا جولة وعينه تطرف علينا شمالا ويمينا، وتتفقد منا حركة وسكونا، وقمنا ولم نقارب الكفاف، وقد ظن بنا الإسراف".

والسجع يطرد دائما عنده على هذا النحو من صفاء اللفظ ورصانته والقدرة البارعة على الملاءمة بين السجعات في الجرس، مع الإنطلاق والسهولة، وكأنه يصدر عن النيل العذب وسلاسته. وهو بحق جدير بما أسبغ عليه الأسلاف من ثناء وإطراء.

(١٠٢٠) رهجا: غبارا.

(١٠٢١) الخوان: المائدة عليها الطعام.

(١٠٢٢) كناية عن أن الأضياف لم يلمسوها.

(١٠٢٣) السغب: الجوع الشديد.

obeikandl.com

ابن[١٠٢٤] مماتي

هو أسعد بن الخطير بن مينا بن أبي المليح زكريا بن مماتي، سليل أسرة قبطية من أسيوط، هاجرت منها إلى القاهرة في القرن الخامس الهجري، وكان جده مماتي جوهريا واشتهر بأنه كان يصبغ البلور صبغة الياقوت فلا يعرفه إلا الخبير بالجواهر. ويقال إن الفص من عمله كان إذا نودي عليه في سوق الصاغة تشوفت نحوه العيون لجودته وحسن منظره. واتصل ابنه أبو المليح بوزير المستنصر بدر الجمالي أمير الجيوش، ووظفه بديوان الإقطاعات أو ديوان الجيش أو ديوان المال، ولعلها جميعا كانت ديوانا واحدا متداخلا. وتولى هذا الديوان لآخر أيام الدولة الفاطمية الخطير مهذب، حتى إذا أسندت الوزارة في آخر أيام العاضد الفاطمي إلى أسد الدين شيركوه نراه يسلم هو وأولاده على يده. وأقره أسد الدين على ما يبده من ديوان الإقطاعات، وقيل بل ديوان الجيش. وكانا متداخلين كما ذكرنا. ومعروف أن أسد الدين شيركوه ولي الوزارة المصرية سنة ٥٦٤ وكان أسعد في العشرين من عمره فأسلم وحسن إسلامه وهو لا يزال في ريعان شبابه، وكان ساعد أبيه وعونه طوال عمله الديواني إلى وفاته سنة ٥٧٧.

(١٠٢٤) أنظر في ابن مماتي وترجمته ورسائله الخريدة (قسم مصر) ١/ ١٠٠ ومعجم الأدباء ٦/ ١٠٠ والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢٦٩ وابن خلكان ١/ ٢١٠ وإنباه الرواة للقفطي ١/ ٢٣١ وخطط المقريزي ٢/ ٥٧٧ والنجوم الزاهرة ٦/ ١٧٨ والبداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٥٢ وشذرات الذهب ٥/ ٢٠ وحسن المحاضرة ١/ ٥٦٥ وطبقات الشافعية للسبكي ٨/ ٢٤٣ ولأبيه الخطير ترجمة بعده في الخريدة وقبله في المغرب.

obeikandl.com

وكان القاضي الفاضل يعجب بابن مماتي ويسميه بلبل المجلس لظرفه، مما جعله يعينه ناظر الدواوين بمصر مع إسناد ديواني الجيش والمال إليه، وظل له هذا العمل بقية مدة صلاح الدين وابنه العزيز والأفضل، حتى إذا ولى السلطان العادل بن أيوب سنة ٥٩٦ واستوزر الصفي بن شكر أخذ الجو يكفهر بينه وبين الوزير، بسبب ما كان يصدر منه في حقه أيام عمله في الديوان معه، فلم تمض مدة طويلة حتى أخذ يدبر عليه المؤامرات، وصودرت أمواله. واستتر فترة نحو عام ثم احتال في الفرار إلى الشام، وأبعد في فراره حتى نزل حلب سنة ٦٠٤ على سلطانها الظاهر بن صلاح الدين فأحسن استقباله، وجعل له راتبا معلوما وظل يسبغ عليه عطاياه حتى توفي هناك سنة ٦٠٦.

وصنف ابن مماتي مصنفات كثيرة عد له ياقوت في معجمه منها أكثر من عشرين مصنفا، منها مؤلفات ومنها مختارات شعرية من بعض الدواوين أو من كتب الموسوعات الشعرية مثل الذخيرة لابن بسام. ومن مصنفات "الشيء بالشيء يذكر" ويقال إن القاضي الفاضل أعجب به حين عرضه عليه وسماه سلاسل الذهب. ومن أهم مؤلفاته كتاب قوانين الدواوين الذي نشره بمصر عزيز سوريال عطية في جزء واحد، ويبدو أنه مختصر للكتاب إذ يقول المقريزي في خططه "كتابه قوانين الدواوين صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها وما يجري فيها، وهو أربعة أجزاء ضخمة، والذي يقع في أيدي الناس جزء واحد اختصره منها غير المصنف، فإن ابن مماتي ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ومساحة كل ضيعة وقانون ريها ومتحصلها من عين (نقد) وغلة". ومن أهم مؤلفاته تهذيب أفعال ابن طريف في اللغة، ويقول القفطي في إنباه الرواة: "أجاده، وأتى فيه بالحسنى وزيادة" ومن أجله ترجم له بين اللغويين والنحاة. وله كتاب اختار العامية لغة له، هو كتاب

الفاشوش في حكم قراقوش، وسنعرض له في غير هذا الموضع. وكان له ديوان شعري سقط من يد الزمن. ونظم سيرة صلاح الدين كما نظم كتاب كليلة ودمنة شعرا. وكان أبوه الخطير شاعرا كما تدل على ذلك ترجمته عند العماد وفي المغرب.

وكان ابن مماتي يحسن الكتابة كما يحسن الشعر، وفيه يقول العماد: "أحد الكتاب في الديوان الفاضلي، ذو الفضل الجلي، والشعر العلي، والنظم السوي، والخاطر القوي، والسحر المانوي،(١٠٢٥) والروى الروى،(١٠٢٦) والقافية القافية(١٠٢٧) أثر الحسن، والقريحة المقترحة صورة اليمن، والفكرة المستقيمة على جدد(١٠٢٨) البراعة، والفطنة المستمدة من مدد الصناعة". وبعد أن أنشد العماد طائفة من أشعاره روى فصولا من رسائله الشخصية تدل على براعته الكتابية بجانب براعته الشعرية مستهلا لها بقوله: "ومن نور"(١٠٢٩) نثره البديع، ونور فجره الصديع(١٠٣٠) وغرر درره النصيعة،(١٠٣١) ما تُحذى(١٠٣٢) له التمائم. وتُحدى(١٠٣٣) به كرائم المكارم، ويرتع

(١٠٢٥) المانوي نسبة إلى ماني مؤسس مذهب المانوية الفارسي قبل الإسلام.

(١٠٢٦) الروى الأول: الحرف الذي تبنى عليه القصيدة والروى الثانية من الماء أي شافي العلة.

(١٠٢٧) القافية الأولى: نهاية البيت في القصيدة، والقافية الثانية من قفا الشيء أي تبعه.

(١٠٢٨) جدد: نهج مستو.

(١٠٢٩) نور: زهر.

(١٠٣٠) الصديع: المنشق نورا.

(١٠٣١) النصيعة: الناصعة.

(١٠٣٢) تحذى: تقطع. بهائم: مبهمات. التمائم: التعاويذ.

(١٠٣٣) تحدى: تساق بالأراجيز والأشعار.

obeikandl.com

الحسن في روضه، وتكرع الحسناء من حوضه، وتغتبط الآداب بدابـه،(١٠٣٤) وتـرتبط الألباب ببابه".

ومن طريف ما دونه له العماد فصل من رسالة شخصية يصور فيها فراقه لـصديق في إحدى الأمسيات قائلا:

"فصلت عنه في أخريات النهار، وقد ظهر في أطراف الجدران لفـرق(١٠٣٥) فـراق الشمس اصفرار، فلما ذَهَب ذهبُ الأصيل بنار الشفق، ولبست المشارق الـسواد لم تـم في المغارب على الشمس من الغرق، وأقبلت مواكب الكواكب في طلب الثأر، كـدراهم النثار(١٠٣٦) وتشابهت زواهرها- وإن اختلفت في الأسحار- بالأزهـار في الأشـجار، وتكلف القمر الموافقة فظهر على وجهه الكلف،(١٠٣٧) ومرت به طوالع النجـوم فلـم يستخبرها حسدا فأعرب عن غدر الخلف بالسلف، وظهر الوجوم، في وجوه النجـوم، وعيل صبر النسرين(١٠٣٨) فواحد طائر يحوم، وآخر واقع لا يقوم. ولم تـزل متلاحقـة متسابقة لتقفو الأثر وتسمع الخبر، إلى أن بدا سوسن الفجر ولاح، وابتسم ثغر الصباح

(١٠٣٤) دابه: تسهيل دأبه أي نمطه.

(١٠٣٥) فرق: جزء.

(١٠٣٦) النثار: ما ينثر على العروس في الزفة من الدراهم.

(١٠٣٧) الكلف: ما يعلو وجه القمر أحيانا من كدرة.

(١٠٣٨) النسران: نجمان أحدهما يسمى النسر الطائر ويسمى الثاني النسر الواقع.

obeikandi.com

عـن الأقـاح،(١٠٣٩) وكـاد ثعلبـه يأكـل عنقـود الثريـا، وبـرزت الغزالـة مـن أس الكناس(١٠٤٠) طلقة المحيا".

ويدل هذا الفصل على أن العماد الأصبهاني كان محقا كل الحق في التنويه ببراعـة ابـن مماتي الكتابية، وهي براعة تكاد تبدو في كل سجعة من سجعات هذا الفـصل، فأضـواء الشمس في الأصيل تعكس بصفرتها على أطراف الجدران فـرق وفزعـا لهـول الفـراق. وتوارى ذهب الأصيل وراء نار الشفق الملتاع، ولبست المشارق الـسواد عـلى الـشمس الغريقة في المغارب. وأقبلت مواكب الكواكـب، وجيوشـها تطالـب للـشمس بالثـأر، متفرقة ومتجمعة وكأنها نثار الدراهم في الأعراس، أو كأنها الأزهار عـلى الأشـجار في الأسحار، وتكلف القمر أن يظهر وحـده لغيـاب الـشمس أختـه فظهـر الكلـف عـلى وجهه، ومرت به الكواكب وطوالعها فلم يسألها مـا الخـبر، حـسدا وغـدرا كـما يغـدر الخلف بالسلف. وبدأ الوجوم في وجوه النجوم، وكاد النسران أن يفقدا صبرهما فواحد طائر يحوم وآخر واقع لا يقوم. ولم تزل النجـوم متلاحقـة، إلى أن بـدا سوسـن الفجـر وزهره الأبيض المشرق ولاح ضياؤه. وابتسم ثغر الصباح عن أضواء كالأقاح. وطالمـا شبه الشعراء مجموعة نجوم الثريا بالعنقود. ويستغل ذلك ابن مماتي، كما يـستغل تـسمية الشعراء للشمس الغزالـة فجعلهـا تـستر لـيلا وراء الأفـق في كنـاس ككنـاس الغـزال والظباء في الشجر. ومراعاة النظير واضحة في السجعات الأخـيرة. ويـشيع في الفـصل كله حسن التعليل، كتعليل ابن مماتي الرائع لـصفوة الـشمس، وهـو حـزن تبعـه لـبس

(١٠٣٩) أقاح: جمع أقحوان وهو نبت زهره أبيض وورقه كأسنان المنشار وهو الأراولة ويشبه به الأسنان.

(١٠٤٠) الغزالة: السشمس. الكناس: بيت الغزالة في الشجر يستتر به. طلقة المحيا: بشة الوجه.

obeikandl.com

السواد، ومن هذا اللون أيضا تعليله لكلف القمر لتكلفه الحزن على غرق الشمس. ويتمادى ابن مماتي مع مراعاة النظير، فيجعل القمر لا يسأل الكواكب عن مصير الشمس حسدا يستشعر فيه من تلقاء نفسه غدر الخلف المعروف بالسلف. ومن هذا اللون أيضا ما علل به طيران أحد النسرين ووقوع صاحبه لما فقدا من صبرهما. وتتلاحق في تضاعيف ذلك الاستعارات، وما يوشي به سجعاته من الجناسات والطبقات. وله من صدر مكاتبة:

"لم يزل العبد لما عرض من إعراض المجلس. . ذا زفرات سوام تتضرم،(١٠٤١) وعبرات هوام تتصرم،(١٠٤٢) وعبارات عن بسط عذره تعثر بالكلام عيا فيتذمم،(١٠٤٣) بالصمت عن أن يتحرز ويتحرم،(١٠٤٤) وأفكار تتنزه عن إساءة الظن بمودته فما يتكدر حتى يتكرم، فكم تناول القلب جلده، فجلده بالقلق لما تجاوز حده وحده،(١٠٤٥) وأجرى من سوابق دموعه عسكرا أجرى فشق خده وخده(١٠٤٦). . إلى أن بدت صحيفة وجه صبره مسودة، وتمنى لو كان الموت قبل إخلافه وعده، وإخلاقه وده(١٠٤٧) وده،(١٠٤٨) حتى جنى ورد ورود كتابه الكريم من انتظام شوك

(١٠٤١) سوام: لازمة لا تبرح. تتضرم: تشتعل.

(١٠٤٢) هوام: سائلة. تتصرم: تتقطع.

(١٠٤٣) يتذمم: يتوسل.

(١٠٤٤) يتحرم: يجده حراما.

(١٠٤٥) حده: ضربه بالسياط.

(١٠٤٦) خده: شقه وأثر فيه.

(١٠٤٧) إخلاق الشيء: جعله باليا.

انتظاره، ورفع ناظره بقدومه عليه على كافة أمثاله وأنظاره، فعلم أن علم المودة قد رُفع، وموصول حبل الجفوة قد قُطع، وكاد القلب يخرج لمصافحته لو استطاع نفاذا، واجتمعت فيه أماني النفس، فاتخذته دون جميع الملاذ ملاذا.(١٠٤٩) وتناوله بيد الإجلال، وفضه بيد الإدلال، فوجده منظوما على خط كالكئوس المرصعة لما لاح مداده مداما ونقطه حببا. وألفاظ تتيح للخواطر طربا، وتعريضات لو كان التصريح فضة لكانت ذهبا، ومنن ما لاحت سحائبها حتى وكفت(١٠٥٠) وأياد ما استكفت فواضلها حتى عمت وكفت".

ووشي الجناسات والاستعارات واضح في هذا الفصل، فالزافرات تتضرم والعبارات تتصرم بينما يتذمم بالصمت ويتحرم. ولا تلبث أن تلقانا جناساته التامة. فالقلب يلوذ إزاء إعراض صاحبه عنه في مجلسه بجلده فيضربه بأسواط القلق، حين تجاوز حده ومنتهاه، ويحده كما يحد الجناة، وتجري سوابق دموعه فتشق خده وتخده أي تشقه وتؤثر فيه، وتخلق وتبلي مودة صابه فيتمنى لو كان الموت وده وزاره. ويعود ابن مماتي إلى هذا الجناس التام بين "الملاذ وملاذا" كما يعود إليه في نهاية الفصل حين وكفت السحب أي أمطرت وعملت فواضل صاحبه وكفت من الكفاية. وتلقانا في الفصل مراعاة النظير والطباق، وكأنما كان ذلك شعارا له في نثره. ومن طريف ما أثر عنه من تصويره لوفاء النيل قوله.

(١٠٤٨) وده: زاره.

(١٠٤٩) ملاذا: ملجأ

(١٠٥٠) وكفت: أمطرت، وكفت في آخر الفصل من الكفاية.

"وأما النيل المبارك فإنه عم اليفاع،(١٠٥١) وطبق،(١٠٥٢) البقاع، وانتقل من الإصبع للذراع، حتى لم يلف بمصر قاطع طريق سواه، ولا مرهوب إلا إياه".

وهو يصور في هذه الكلمات القليلة فيضان النيل بل طوفان الذي لا يقاس بالإصبع وإنما بالذراع والذي علا موجه مرتفعات الوادي وجميع البقاع، حتى قطع الطرق وأخذ بخناق الدور والسكان، ورهبة الناس وطلبوا منه الأمان. ولعل في كل ما قدمنا ما يصور قدرة ابن مماتي البيانية وأنه كان جديرا بأن تعنى كتب الأدب والتراجم. بشعره ونثره، وتحمل إلينا باقات كثيرة من رسائله.

فخر الدين(١٠٥٣) بن مكانس

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن إبراهيم بن مكانس، من سلالة أسرة قبطية، ولد لأبيه سنة ٧٤٥ بالقاهرة. وكان الأب مسلما كما يتضح من اسمه، وكان من الكتاب في الدواوين، فنشأ ابنه على غراره، وكان ذكيا ذا ملكة خصبة، فسال الشعر مبكرا على لسانه. وصحب برهان الدين القيراطي وبدر الدين البشتكي الشاعر أحد تلاميذ ابن نباتة، وعنه روى شعره ونثره. وكان حنفي المذهب. واحتل سريعا مكانة أدبية بين أقرانه في القاهرة ودواوينها السلطانية، ورقي بها إلى منصب ناظر الدولة،

(١٠٥١) اليفاع هنا: مرتفعات وادي النيل.

(١٠٥٢) طبق: عم.

(١٠٥٣) أنظر في ابن مكانس وترجمته ونثره وشعره الدرر الكامنة ٢/ ٤٣٨ والنجوم الزاهرة ١٢/ ١٣١ وصبح الأعشى ١٤/ ٢٦٧ وخزانة الأدب للحموي ص ١٩، ٢٢٤، ٣١٩، ٣٣٠، ٤١١، ٥٤٧.

obeikandl.com

وغيره من المناصب الرفيعة. وغضب عليه السلطان برقوق (٧٨٣- ٨٠١) ذات مرة فأمر بمصادرته وتأديبه على خشبة السرياق منكسا على رأسه فقال:

لجرمة أوجبت تعذيب ناسوتي(١٠٥٤) وما تعلقت بالسرياق منتكسا

علقت تعليق هاروت وماروت لكنني مذ نفثت السحر من أدبي

ويدل البيتان على ظرفه. وعفا عنه السلطان برقوق وأعاده إلى العمل، ثم عينه وزير دمشق، فأقام بها مدة. وفي صحبة السلطان برقوق داخل حلب، وطارح فضلاءها كما طارح فضلاء دمشق. وطلبه السلطان برقوق بعد عودته إلى القاهرة ليلي الوزارة بالديار المصرية، غير أنه توفي قبل دخوله القاهرة، ودفن بها سنة ٧٩٤ قبل أن يكمل سنته الخمسين. وخلف ديوان شعر كبير، وفي دار الكتب المصرية مخطوطتان منه إحداهما بخط ابنه مجد الدين وكان شاعرا بارعا على شاكلة أبيه، وقد أنشدنا بعض شعره البديع في غير هذا الموضع.

وأشاد بفخر الدين كل من ترجموا له، فيقول ابن حجر في الدار الكامنة: "كان قوي الذهن حسن الذوق حاد النادرة يتوقد ذكاء" ويقول صاحب النجوم الزاهرة: "كان أديبا فاضلا شاعرا فصيحا بليغا. . وهو أحد فحولة الشعر بالديار المصرية في عصره، وشعره في غاية الحسن والرقة والانسجام، وديوان شعره مشهور كثير الوقوع بأيدي الناس" وكان كثير التورية فيه على نحو ما يتضح مما رواه له مترجموه وخاصة الحموي صاحب خزانة الأدب. وله رسائل شخصية تدل على روعته البيانية من ذلك رسالة احتفظ بها القلقشندي في صبحه كتب بها إلى بدر الدين البشتكي في غيبته عن مصر

(١٠٥٤) لجرمة: لجرم أي لذنب. ناسوتي: جسدي.

obeikandi.com

بدمشق سنة ٧٨٤ وتصادف أن كان فيضان النيل عاليا وزاد بزيادة مفرطة، فرأى أن يصور له ذلك قائلا:

"ربنا اجعلنا في هذا الطوفان من الآمنين، وسلام على نوح في العالمين. ما تأخير مولانا بحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء؟. . فإنه قارب النيل أن يمتزج بنهر المجرة بل وصل إلى وامتزج، وأرانا من عجائبه ما حقق أنه المعنى يقول القائل: حدث عن البحر ولا حرج. وسقى الناس من ماء حياته المعهودة كلما شربوا من الموت أصعب كاس، وسئل ابن أبي الرداد عن قياس الزيادة فقال: زاد بلا قياس، امتلأ اليباب،(١٠٥٥) وهال العباب، كال فطفف، وزار فما خفف، جمع في صعوده إلى الجبال بين الحادي والملاح، ودخل الناس إلى أسواق مصر وخصوصا سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح،(١٠٥٦) وغدا التيار ينساب في كل يم كالأيم،(١٠٥٧) وأصبحت هضاب الموج في سماء البحر وكأنما هي قطع الغيم، واستحالت الأفلاك فكل برج مائي، وتغيرت الألوان فكل ما في الأرض سمائي. . وتحالى إلى أن أقرف(١٠٥٨) الليمون الأخضر، واحمرت(١٠٥٩) عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر، ولقد صعب سلوكه وكيف لا وهو البحر المديد، وأصبح كل جدول منه جعفرا(١٠٦٠) ويزيد. .

(١٠٥٥) اليباب: القفر والخراب.

(١٠٥٦) يريد السفن.

(١٠٥٧) اليم: البحر. الأيم: الحية الذكر.

(١٠٥٨) أقرف هنا: عطر، من القرفة المعروفة طيبة الرائحة.

(١٠٥٩) احمرت عينه: كناية عن الحمرة في طمي النيل.

(١٠٦٠) الجعفر: النهر الصغير.

obeikandi.com

ولكم قال الهرم للسارين، يا سارية الجبل، وأنشد وقد شمر ساقه للخوض: أنا الغريق فما خوفي من البلل، وكم قال أبو الهول: لا هول إلا هول هذا البحر، وقال المسافرون: ما رأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء[١٠٦١] النهر. . ولو رآه مولانا وقد هجم على مصر فجاس خلال الديار، ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم ير منه غير الآثار، لبكى بعيني عروة،[١٠٦٢] وأوى من الرصد إلى ربوة. . وكل سفينة قد علت على وجه الماء، وارتقت لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء، وقد قالت لها أترابها عند الفراق إلا ترجعي، وقلنا لها نحن على سبيل التفاؤل: (يا سماء أقلعي[١٠٦٣]). . ولقد طار النسر مبلول الجناح، ودنا نهر المجرة من السكارى بالشخاتيت[١٠٦٤] إلى أن كاد يدفعه من قام بالراح، ونرجس البساتين وقد ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم. . والورد وقيل له مالك من آس، وغصن البان وقد قيل له طوبى لمن عانقك ولا باس".

ونكتفي بهذه المقتطفات من الرسالة فإنها طويلة، وهي رسالة بديعة في وصف فيضان النيل وسمو أمواجه وارتفاعها إلى أعلى الأعالي في شواطيء النيل حتى كادت أن تمتزج بالمجرة في السماء كما يقول ابن مكانس، فإذا الحادي للإبل يلتقي بالملاح، وإذا الناس يدخلون إلى أسواق مصر والفسطاط على سفن ذات ألواح. فقد انسابت غدرانه وأمواجه إلى الطرقات والشوارع وتعالت هضاب أمواجه إلى السماء حتى لكأنها قطع

(١٠٦١) ما وراء النهر: ما وراء خراسان في شماليها الشرقي.

(١٠٦٢) عروة هو عروة بن حزام العاشق المشهور في صدر الإسلام.

(١٠٦٣) أقلعي: أمسكي عن الماء.

(١٠٦٤) الشخاتيت: لعلها القوارب.

obeikandl.com

السحاب. ولم تعد هناك أرض وسماء ولا أفلاك ووهاد، وحلا النيل وتظرف حتى عطر الليمون الأخضر، واحمرت عينه إشارة إلى طميه الأحمر، فأغرق الناس وأذاقهم الموت الزؤام. ويستمر ابن مكانس في هذه الاستعارات، فيخلط بين النيل وبين وزن المديد الصعب في الشعر وبحره وكذلك بين جداوله والجعفر أي النهر الصغير. ويستعير الكلمة المأثورة عن عمر بن الخطاب وهو على المنبر حين هتف بقائده سارية وهو يحارب في الشام فقال له يا سارية الجبل أي الزمه ويقال أن الريح حملت الكلمة إلى سارية. وما أروع تصويره لهرم الجيزة وقد شمر ساقه للفيضان حين علا إلى جدرانه فقال متمثلا بشطر من الشعر: أنا الغريق فما خوفي من البلل. وقد ورَّى بكلمة ما وراء النهر فهو لا يريد ما وراء النيل من بلاد السودان وإنما يريد ما وراء خراسان في أوزبكستان الحالية وكانت تسمى بلاد ما وراء النهر. والمعشوق بستان ورباط عظيمان كانا بظاهر القاهرة. وقد اقتبس من الحديث عن الطوفان في القرآن الكريم: (ويا سماء أقلعي). وتلقانا في الرسالة آيات أخرى وأشعار كثيرة منثورة. وما أسرع ما جاء باقتباس من سورة يوسف عن أبيه وقد أسف عليه: (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ). وورَّى في كلمة آس فهي تحمل معنيين: الآس زهر وردي أو أبيض، والآسي الطبيب المداوي. والاستعارات بديعة هي وما تتحلى به من زخارف البديع وحلاه ومحسناته من جناس وطباقات ومراعاة نظير وحسن تعليل.

ووشي شخص قيرواني ضرير إلى أبي بكر بن العجمي أحد الكتاب النابهين في ديوان الإنشاء بأن صديقه ابن مكانس يقول عنه إنه يستعين بكلام غيره، فتأذى ابن العجمي من ذلك، وتأذى ابن مكانس من كذب الناقل فكتل إليه من رسالة:

"(ليس على الأعمى حرج) بلغني- ما بلغ سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة الأديب الشاعر الناظم الناثر المحقق الأمة الكاتب الحجة زين الدنيا والدين، قرة عين الكرام الكاتبين، لا زال زينة يحلى به العاطل، ويظل تحت جناح أدبه القائل(١٠٦٥)- من غيبة ذلك الضرير، مالا خشي الله فيه بظهر الغيب، ونقل إلى المسامع الكريمة مالا يحتاج للاعتذار عنه لما فيه من الريب، ولكن لا غناء لسيف ذهن المملوك الكليل من التنصل،(١٠٦٦) ولابد من نهلة اعتذار على سبيل التعلل. . ولو اختلف الأدباء على إمام لأهل هذه الصناعة مطهر من الأرجاس،(١٠٦٧) لقال لهم لسان البلاغة مروا أبا بكر فليصل بالناس. . والمسئول من إحسانه أمران: أحدهما الجواب فإنه يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة، والآخر رد كل فاسق عن الباب العالي فإن أبا بكر أول من تصلب(١٠٦٨) في الردة، وبلغ المملوك أن هذا الضرير قصد بعض الأصحاب برمية كهذه فأصمى،(١٠٦٩) وتردد إليه مرة أخرى فـ (عبس وتولى أن جاءه الأعمى)". .

والسجعات خفيفة ورشيقة مع ما يزينها من الاستعارات والجناسات، وفي كلمة "القائل" تورية واضحة، إذ لا يريد أن ابن العجمي يظل تحت جناح أدبه الأديب المتكلم القائل، وإنما يريد القائل من القيلولة ووقتها الحار في الظهيرة، فهو غوث

(١٠٦٥) القائل: المتعب من القيلولة وهي وسط النهار.

(١٠٦٦) التنصل: التبرء.

(١٠٦٧) الأرجاس: جمع رجس وهو الإثم.

(١٠٦٨) تصلب: تشدد.

(١٠٦٩) أصمى السهم: أصاب إصابة نافذة.

obeikandi.com

العائذين وملاذ المعوذين المحتاجين. واستغل اسمه أبا بكـر في التوريـة باسـم أبي بكـر الصديق متلطفا بذكر حادث صلاته بالمسلمين نزولا على أمر الرسـول صـلى الله عليـه وسلم له حين اشتد به المرض إذ قـال: "مـروا أبـا بكـر فليـصل بالنـاس". وعـاد ابـن مكانس إلى التورية بأبي بكر الصديق حـين طلـب مـن ابـن العجمـي أن لا يفـتح بابـه للواشي مقتديا في ذلك بالصديق حين تشدد في حروب الردة على نحو ما هو معـروف. ولم يلبث أن اقتبس من الذكر الحكيم آية تصور ما ينبغي عـلى ابـن العجمـي مـن لقـاء الواشي لقاء متجهما على نحو ما تصور ذلك الآية:)بَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَـى). ولعل في كل ما قدمت ما يصور خفة روح ابن مكانس وعذوبة سجعه ومـا يـشيع فيـه من سلامة.

obeikandl.com

٣

المقامات

معروف أن المقامة حديث قصصي قصير يصور كيف يحتال أديب متسول على سامعيه بسجعه وأساليبه الرشيقة، فيستخرج الدراهم والدنانير من جيوبهم، وهو جواب آفاق يظهر في بلدان كثيرة أديبا متسولا يخلب الجماهير ببيانه وبلاغته، وبديع الزمان الهمذاني هو أول من ابتكر هذه الأحاديث القصصية، على نحو ما هو معروف عن مقاماته، ونسج على منواله الحريري في مقاماته المشهورة.

وأكب الناس على مقاماتهما إكبابا شديدا مما دفع كثيرين من الأدباء في الأقطار العربية المختلفة إلى محاكاتهما في هذا الفن البديع، تارة يبنونه على الشحاذة الأدبية مثلهما، وتارة يستقلون عنهما مكتفين فيه بضرب من الحديث القصصي الفكه. وقد يتركون القصص جانبا، ويبنون المقامة على الوعظ أو على عرض مسائل علمية، أو على وصف الحيوانات، أو وصف البساتين والحوار بين الأزهار، وغير ذلك من موضوعات شتى. ولظافر الحداد الذي ترجمنا له بين الشعراء والذي توفي بعد الحريري بنحو عشر سنوات مقامة،(١٠٧٠) صور فيها نفسه وقد أصبح ذات يوم تائقا إلى لقاء بعض الأدباء، ومطرته الح، لم يلبث أن جاءته منهم رفقة، فتلقاهم بالبشر والسرور وأخذ في الحديث معهم، حتى دن وقت الغداء فأسر إليه غلام أن ليس عندهم للإنفاق إلا الإملاق، وبينما هو يفكر في وسيلة لإنقاذ الموقف إذا الباب يقرع وإذا رسول شواء كان قد خلصه

(١٠٧٠) أنظر ديوان ظافر ص ٣٤٩.

obeikandi.com

من حبس الشرطة يرسل إليه بإناء كبير مليء بأرز ولحم وسكر. وبعد حوار مع غلامه هل يرجعه للشواء أو يقبله، يقنع بقبوله. ويشبع الفيضان، ولا يجد عنده شيئا من فاخر الحلوى يقدمه لهم. ويقدم قصيدة يعتذر بها عن ضيق حاله، ويستفزهم الضحك والطرب، ويعودون إلى حديثهم العذب حتى غروب الشمس، ويستهل ظافر مقامته على هذا النمط:

"أصبحت ذات يوم في منزلي، وقد كل جناني وبناني ولساني وإنساني،(١٠٧١) من الدأب في الطلب، والإكباب على الكتب، ومتابعة المراجعة، في النسخ والمطالعة، بين معنى أحكمه، أو خط أرقمه،(١٠٧٢) فتاقت النفس إلى الإحماض بمفاكهة أديب، والارتياض بمذاكرة لبيب، وإذا الغلام قد دخل وأسرع، وقال: الباب يقرع. فقلت له: ما الشأن؟ فقال جماعة من الإخوان، منهم فلان، فذكر لي كل صديق صدوق، ورفيق رفيق، فقلت: ويحك عجل بفتح الباب، وأذن للأحباب، فهم نزهة النفس، وثمرة الأنس".

وتمضى المقامة بهذا السجع الخفيف، الذي يكاد يطير عن الأفواه طيرانا بعذوبته وقصره، وحسن الاختيار للفظه. ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية الرشيدة(١٠٧٣) بن الزبير المتوفى سنة ٥٦٢ وهو أخو المهذب الذي ترجمنا له بين

(١٠٧١) إنساني: يريد إنسان عينه.

(١٠٧٢) أرقمه: أكتبه

(١٠٧٣) أنظر في الرشيد وترجمته الخريدة (قسم شعراء مصر) ١/ ٢٠٠ وابن خلكان ١/ ١٦٠ والشذرات ٤/ ١٩٧، ٢٠٣.

obeikandl.com

الشعراء وكان شاعرا مثله، ويقول بن خلكان له ديوان شعر، وكان من أهل الفضل والنباهة والرياسة صنف كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان في شعراء عصره، وكان تكملة لكتاب اليتيمة للثعالبي وسقط من يد الزمن، وقال العماد الأصبهاني عنه: "أوحد عصره في علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعيات والآداب" ويقول ياقوت عنه: "كان كاتبا شاعرا، فقيها نحويا لغويا عروضيا مؤرخا منطقيا. مهندسا، عارفا بالطب والموسيقى والنجوم متفننا". ومن كتبه كتاب منية الألمعي وبلغة المدعي، وهو موسوعة علمية. وصور معارفه الكثيرة في مقامة تسمى المقامة الحصيبية،(١٠٧٤) استعرض فيها جوانب من معارفه العلمية الواسعة، وهو يدير فيها الحوار بينه وبين طائفة من العلماء بادئا بعالم نحوي أو حديثه مع علماء العروض والفقه وأصوله والتفسير والتأويل والفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والرياضة وعلم الفلك والهيئة والأجرام والكواكب العلوية وعلم الطب. حتى إذا أنهى المقامة تلاها بشرح لما جاء فيها من مسائل هذه العلوم ومصطلحاتها. والمقامة تموج بالسجع، من ذلك قوله في مطابع مقامته ناعيا على من لا يعرفون سوى علم أو علمين ويعمدون إلى التزيي بزي الزهاد والصوفية احتيالا على الناس ليسبغوا عليهم من أموالهم، وهم لا يقدرون العلوم حق قدرها فضلا عن التغلغل إلى مسائلها ومشاكلها:

"أحسبتم يا أعلام الضلال أن كل من نظر في علم أو علمين وحفظ مسألة أو مسألتين ثم قصر سربالـه،(١٠٧٥) وقص سباله،(١٠٧٦) مظهرا للنسك والزهادة،

(١٠٧٤) من هذه المقامة مخطوطة بدار الكتب المصرية ومخطوطتان بمكتبة الإسكندرية.

(١٠٧٥) سربالـه: ثوبه.

متعرضا للاستفادة في معرض الإفادة، يستوهب بذلك الطعام، ويستجلب الحطام،(١٠٧٧) ويجلب الحرام، ويسمى بالشيخ الإمام، قد صلح لأن يفصل بين العلوم، ويميز بين المحمود منها والمذموم".

والمقامة كسابقتها ليس فيها أديب شحاذ يروى حيله وما يحسن من الأساليب الأدبية، فقد تحولت من بعض الوجوه إلى ما يشبه الرسائل إذ تتناول موضوعا يحل صاحبها فيه محل أبى الفتح الإسكندري عند بديع الزمان وأبي زيد السروجي عند الحريري.

ويعرض الأدفوي في الطالع السعيد طائفة من هذه المقامات أو الرسائل على ألسنة كتابها من أدباء الصعيد، من ذلك مقامة(١٠٧٨) أو رسالة لمحمد بن يوسف بن نحرير المتوفى بعد سنة ٦٦٥ يمدح فيها أميرا ويصف خروجه إلى الصيد، من ذلك قوله فيها:

"خرج يوما ما مع أناس، وصل برهم بإيناس، كل منهم يهتز للأكرومة، ويأوي إلى أشرف(١٠٧٩) أرومة، على خيل مسومة،(١٠٨٠) مثقفة مقومة، ما بين جون أدهم،(١٠٨١) أذكى من فارسه وأفهم، إذا زاغ عن سنان، أو انعطف لعنان، وأشهب

(١٠٧٦) سباله: شاربه.

(١٠٧٧) الحطام: متاع الحياة.

(١٠٧٨) الطالع السعيد للأدفوي (طبع مطبعة الجمالية) ص ٣٦٧.

(١٠٧٩) الأرومة: الأصل، الأكرومة: إكرام.

(١٠٨٠) مسومة: معلمة لأصالتها.

(١٠٨١) جون أدهم: أسود.

obeikandi.com

كريم، له سالفة ريم،(١٠٨٢) كأنما خلق من عقيق أو تردى برداء شقيق، إن أوردته الطراد، أوردك المراد، وهملاج(١٠٨٣) إن زجرته ألهب أديمه،(١٠٨٤) روضة بهار،(١٠٨٥) ينظر في ليل كالنهار، ينساب انسياب الأيم،(١٠٨٦) ويمر مرور الغيم، لا ينبه النائم إذا عبر به، ولا يحرك الهواء في سربه، أخف وطأ من طيف، وأوطأ من مهاد الصيف. . ولم يزل بنا المسير، وكل منا في طاعة صاحبه أسير، إلى أن قصدنا واديا، كان لعيوننا باديا، فما قطعنا منه عرضا، حتى أتينا أرضا، كأنما فرض قرارها زبرجد، وصيغت ألوانها من لجبن وعسجد. . تهدى للناشق، أنفاس المعشوق للعاشق".

والمقامة على هذا النحو قطع من الوصف المسجوع البارع للخيل ولكلاب الصيد.

وتكثر المقامات في أيام المماليك، وتأخذ طبع المناظرات والمفاخرات، وكأنما نسى أصلها عند الهمذاني والحريري نهائيا. فلا يطل صاحب حيل، ولا قصص، وإنما حجاج وجدال وتوليد لا يكاد ينتهي للأدلة والبراهين، مع السفسطة والمغالطة وقلب المحاسن مساوي بغرض الإفحام وإظهار القدرة على القهر والغلبة، ومع المبالغات والإفراط فيها بهدف الاستعلاء. ومن طريف هذه المقامات والمفاخرات المفاخرة بين السيف

(١٠٨٢) ريم: ظبي أبيض. والفرس الأشهب: يخالط بياضه سواد أو حمرة.

(١٠٨٣) الهملاج: الفرس في سيرة بخترة.

(١٠٨٤) أديمه: جلده.

(١٠٨٥) بهار: زهر أبيض.

(١٠٨٦) الأيم: الحية الذكر.

obeikandl.com

والقلم لابن نباتة،(١٠٨٧) وفيها يستهل القلم مفاخرته بقوله تعالى: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) وهي براعة استهلال واضحة، وما يلبث أن يقول ابن نباتة عنه.

"إن القلم منار الدين والدنيا، ونظام الشرف والعليا، وزمام أمور الملك السائرة، وقادمة(١٠٨٨) أجنحته الطائرة، ومطلق أرزاق عفاته(١٠٨٩) المتواترة، وأنملة الهدي المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة، به رقم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم التي تهذب الخواطر الخواطل(١٠٩٠). . إن نظمت فرائد العلوم فإنما هو سلكها، وإن علت أسرة الكتب فإنما هو ملكها. . وإن وعد أوفي بجلب النفع، وإن أوعد أخاف كأنما يستمد من النقع(١٠٩١)".

ويستمر القلم في هذه المفاخرة، فهو الذي يأمر بالجهاد والسيف نائم في رقابه، وهو الذي يأمر بالعدل والإحسان، مع المحاماة عن الدين وما ينزل بالأعداء من الرعب. وكأن ابن نباتة يريد أن يعلى فضله على السيف حتى في الحرب وجهاد الأعداء. ويستغفر القلم من الشرف وخيلائه والخيلاء وكبريائه. وينبري السيف مدافعا عن حماه مستهلا كلامه بقول تعالى: (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) ويحمد الله الذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف. ويفاخر القلم بعزمه الثاقب وفتوحه، مما جعل الناس يدخلون في دين الله

(١٠٨٧) خزانة الأدب للحموي ص ١٣٠، ٥٤٥.

(١٠٨٨) قادمة الأجنحة: ريشات أربع كبار في مقدمة الجناح.

(١٠٨٩) عفاته: طلاب معروفة.

(١٠٩٠) الخواطل: الحائدة عن الصواب.

(١٠٩١) النقع: غبار الحرب. والوعد يكون في الخير والإبعاد في الشر.

obeikandl.com

أفواجا. وينتفض القلم في دواته ويضطرب على وجه القرطاس، وينفجر قائلا للسيف في حدة وعنف.

"أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع، وأنا للعطاء وأنت للمنع، وأنا للصلح وأنت للضراب، وأنا للعمارة وأنت للخراب، وأنا المعمر، وأنت المدمر. . وأنا ذو اللفظ المكين وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى (أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) لقد تعديت حدك، وطلبت ما لم تبلغ به جهدك، هيهات أنا المنتصب لصالح الدول وأنت في الغمد طريح، والمتعب في تمديدها وأنت غافل مستريح. . أين بطشك من حلمي، وجهلك من علمي. . وأين نذير الأعداء من رسول الأحباب".

ويرد عليه السيف مغيظا محنقا، ويكيل له الكيل كيلين. . ويشعر القلم أخيرا بفضل السيف، ويميلان إلى الصلح معرفين بأنهما للملك كاليدين وفي آفاقه كالقمرين. وهي مقامة أو قل مناظرة بديعة دبجت بأسلوب يتدفق بالسلامة وخفة السجع ولطف مآخذه ودقة معانيه. وابن نباتة في نثره مثل شعره يمتاز بالصفاء مع الرصانة والرونق وجمال اللفظ وحسن اختياره. ولابن مكانس نثره مثل شعره يمتاز بالصفاء مع الرصانة والرونق وجمال اللفظ وحسن اختياره. ولابن مكانس الذي ترجمنا له بين كتاب الرسائل الشخصية مقامة في ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية بناها على الفكاهة والمجون إذ أدارها على الشراب. وقد جعلها حوارا بين عشرات من الأشخاص يمثلون ما كان بالقاهرة لزمنه من المهن والصناعات.

وتظل المقامات حية في الفترة العثمانية. وينحو بعضها نحو الفكاهة والمجون والدعابة أو نحو الهجاء كما سنرى عند الشهاب الخفاجي، وسنخصه بكلمة، وكثير

منها يتخذ المديح موضوعا له، من ذلك مقامتان[١٠٩٢] لمصطفي اللقيمي الدمياطي المتوفى سنة ١١٧١ مدح بهما الأمير العثماني رضوان كتخدا، وإحداهما طويلة وتكثر فيها مقطوعات الشعر ونقرأ بها قصيدتين ومزدوجة في مديح الأمير. ولحسن شمه مقامة[١٠٩٣] في مديح الشيخ محمد بن سالم الحفناوي الشافعي الخلوتي ضمنها سائر الفنون الشعرية من النسيب والموضح والدوبيت والزجل والكان وكان والقوما والمواليا مع العناية بالسجع في نثرها وحشد محسنات البديع، وجدير بنا أن نترجم لبعض أصحاب المقامات والمفاخرات.

ابن[١٠٩٤] أبي حجلة

هو شهاب الدين أحمد بن يحيي بن أبي بكر بن عبد الواحد أبي حجلة التلمساني الأصل. ولد بزاوية جده أبي حجلة بتلمسان سنة ٧٢٥ ورحل في بواكير حياته إلى الحج ودخل دمشق، ثم استوطن مصر، وأولع بالأدب حتى مهر فيه، واعتنق المذهب الحنفي مع ميله إلى المذهب الحنبلي. ولم يلبث بمصر أن أصبح شاعرا بارعا فاضلا وكاتبا ناثرا، وولي مشيخة الصوفية بخانقاه منجك اليوسفي بظاهر القاهرة. وكان يكثر الإزراء على أهل الوحدة من الصوفية، كما كان يحمل على ابن الفارض وامتحن بسببه. وعارض

(١٠٩٢) تاريخ الجبرتي ١/ ٢٢١ وما بعدها.

(١٠٩٣) تاريخ الجبرتي ١/ ٢٩٠.

(١٠٩٤) أنظر في ابن أبي حجلة الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار الكتب الحديثة) ١/ ٣٥٠ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١١/ ١٣١ وحسن المحاضرة ١/ ٥٧١ وشذرات الذهب لابن العماد ٦/ ٢٤٠ وصبح الأعشى ١٤/ ٢٧٦ والحجلة: طائر في حجم الحمام أحمر الرجلين والمنقار.

obeikandl.com

جميع قصائده بقصائد نبوية. ومازال يتولى خانقاه منجك حتى توفي سنة ٧٧٦ للهجرة. ويقول ابن تغري بردي: له مصنفات كثيرة تبلغ ستين مصنفا، وأكثرها كتب أدبية ومن أشهرها: "سكر دان السلطان" و"ديوان الصبابة" وهما مطبوعان.

ومعنى سكردان إناء السكر وقد أهداه بعد سنة ٧٥٥ إلى سلطان مصر المملوكي السلطان حسن ابن محمد الناصر بن قلاوون، وهو يدور في معظمه حول العدد ٧ وأهميته في تاريخ مصر وأحداثها. وقد جعله في مقدمة وسبعة أبواب، ويذكر في الباب الأول خاصية العدد: ٧. ويتحدث في الباب الثاني عن السلطان حسن وأنه سابع السلاطين في أسرته. ويعرض في الباب الثالث لإقليم مصر وصلة العدد سبعة به. ويعود في الباب الرابع إلى السلطان حسن مع أحاديث قصيرة عمن تقدمه من ملوك مصر. ويخص الباب الخامس بأسرة السلطان حسن وجده قلاوون ويمتد به الحديث عن الأسرة في البابين السادس والسابع. ويتبع ابن أبي حجلة هذه الأبواب بأبواب سبعة أخرى، يتناول في أولها قصة يوسف وتفسير سورته. ويجعل الثاني لقصة موسى وفرعون، والثالث لملوك مصر وبعض أخبارهم، والرابع لسيرة الحاكم الفاطمي، والخامس لبعض الأحداث بمصر، والسادس لأحداث القاهرة، والسابع للزهرات السبع. ومما ذكره عن الحاكم الفاطمي، أنه ليس الصوف سبع سنين وأمر بإيقاد الشمع ليلا ونهارا مدة سبع سنين ومنع النساء من الخروج سبع سنين وسبعة أشهر، وكان يقرأن نسبه على المنبر كل جمعة أو كل سبعة أيام، وقتل وهو يلبس سبع جبات بعضها فوق بعض. ولا ريب في أنه بالغ في ربط الأحداث التاريخية بالعدد ٧، ومع ذلك

obeikandi.com

فالكتاب يشتمل على أخبار تاريخية كثيرة، تجعل له من حيث التاريخ لا من حيث العدد ٧ غير قليل من الأهمية.

وكتاب ديوان الصبابة- كما يتضح من عنوانه- يتناول العشق وكل ما يتصل به من الوصف المادي للمرأة ومن الزيارة والعتاب واللقاء والهجران والاستعطاف وإفشاء السر والكتمان والغيرة ومن أحب من أول نظرة وأشهر العشاق، وهو في ثلاثين بابا ويزخر بالمختارات الشعرية والنثرية في الحب والصبابة، ووضع بين يدي أبوابه عن العشق أسبابه وعلاماته، ويذكر طائفة من أحاديث الأدباء والفلاسفة عنه. ويختمه بذكر من مات بسبب عشقه. والكتاب كسابقه طريف في بابه.

وربما كان أهم من الكتابين السابقين لابن أبي حجلة مقاماته، وكانت مشتهرة في زمنه، ويقول ابن حجر: "أنشأ مقامات أجاد فيها". ويعرض القلقشندي لإحدى مقاماته وهي المقامة الزعفرانية الخاصة بفيضان النيل ووفائه، ويقتبس منها نحو خمس صفحات كبيرة مقدما لها بقوله عنه، "الأديب الذي كان حجة العرب، والناثر الذي كان بنسبته إلى الطيور(١٠٩٥) محرك المناطق وإلى الشعر صناجة الأدب" ويستمر في الثناء عليه حتى يقول: من مقامته الزعفرانية عن أبي الرياش، وكأن ابن أبي حجلة سمي راويها أبا الرياش، ومن قوله فيها:

"إن النيل تزايد دفعه فقد امتزج بالمعصرات ثجاجه،(١٠٩٦) وأعيي طبيب الغيطان(١٠٩٧) علاجه:

(١٠٩٥) يشير إلى كنية جده أبي حجلة كما يشير بتحريك المناطق إلى كتاب له سماه منطق الطير.

(١٠٩٦) المعصرات: السحاب الممطر تعتصره الرياح. ثجاجه: سيله أو سيوله المتدافعة. يبالغ في عتوه حتى

وشرق حتى ليس للشرق مشرق وغرب حتى ليس للغرب مغرب

قلت: فما فعل النغير،(١٠٩٨) بجزيرة الطير؟ قال: لم يبق بها هاتف يبشر بالصباح، ولا ساع يسعى برجل (ولا طائر يطير) بجناح، إلا اتخذ (نفقا في الأرض أو سلما في السماء) أو آوى (إلى جبل يعصمه من الماء) فأذاق بها الحمام الحمام(١٠٩٩) في المروج، وترك أرضها كالسماء ما لها من فروج، وتلا على الحمام: (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج) وكم من سماء مائها من نسر واقع، وبومة تصفر على ديارها البلاقع:(١١٠٠)

ومنهل فيه الغراب ميت سقيت منه القوم واستقيت

قلت: فمصر؟ قال: زحف عليها بعسكره الجرار، ونفط مائه الطيار، قلت فالجيزة؟ قال: طغى الماء حتى علا على قناطرها وتجسر، ووقع بها القصب من قامته حتى علا عليه الماء وتكسر، فأصبح بعد اخضرار بزته(١١٠١) شاحب الإهاب، ناصل الخضاب، غارقا في قعر بحر (يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب) وقطع طريق زاويتها على من بها من المنقطعين والفقراء، وترك الطالح كالالح يمشي على الماء (فتنادوا

صافح السحب.

(١٠٩٧) الغيطان: الحقول.

(١٠٩٨) النغير: طائر صغير كالعصفور.

(١٠٩٩) الحمام: الموت. والجناس بينه وبين الحمام واضح.

(١١٠٠) البلاقع: الخالية.

(١١٠١) بزته: شارته وثوبه.

obeikandi.com

مصبحين): (أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) وأدركهم الغرق فأيسوا(١١٠٢) من الخلاص (فغشيهم من اليم ما غشيهم) (ولات حين مناص(١١٠٣)) و (خر عليهم السقف من فوقهم) فهدت قواهم، واستغاثوا من كثرة الماء بالذين آمنوا وعملوا الصالحات (وقليل ما هم) قلت: فالروضة؟ قال: أحاط بها إحاطة الكمام(١١٠٤) بزهره والكأس بحباب(١١٠٥) خمره:

فكأنها فيه بساط أخضر وكأنه فيها طراز مذهب(١١٠٦)

فلم يكن لها بدفع أصابعه يدان، وكم أنشد مرجها حين (مرج(١١٠٧) البحرين يلتقيان):

أعيني كفا عن فؤادي فإنه من البغي سعي اثنين في قتل واحد

قلت: فدار(١١٠٨)النحاس؟ قال: أنحس حالها، وأفسد ما عليها ومالها، فدخل من حمامها الطهر، وقطع الطريق بالجامع الظهر، فألحق مجاز بابه بالحقيقة، ورقي منه على درجتين في دقيقة. . قلت فجزيرة أروى؟ قال: قد أفسد جل ثمارها، وأتى على

(١١٠٢) أيسوا: يئسوا.

(١١٠٣) مناص: ملجأ ومفر.

(١١٠٤) الكمام: جمع كم بكسر الكاف. غلاف الزهرة قبل أن تتفتح.

(١١٠٥) الحباب: الفقاقيع على وجه الكأس.

(١١٠٦) جعل لون النيل مذهبا إشارة إلى ما كان يصحبه في فيضانه من الطمي.

(١١٠٧) مرج البحرين: أرسلها في مجريهما متجاورين.

(١١٠٨) مرج البحرين: أرسلهما في مجريهما متجاوين.

obeikandl.com

مغانيها[١١٠٩] فلم يدع شيئا من رديها وخيارها، أخلق ديباجة روضها الأنف،[١١١٠] وترك قلقاسها في الجروف[١١١١] على شفا جرف:[١١١٢]

بعيني رأيت الماء يوما وقد جرى على رأسه من شاهق فتكسرا

طالما تضرع بأصابعه إلى ربه، ولطم برءوسه الحيطان مما جرى من الماء على قلبه، وتمثل بقول الأولى:

وإن سألوك عن قلبي وما قاسى فقل قاسى وقل قاسى وقل قاسى

لم يفده تحصنه من ورقه بالدرق[١١١٣] والستائر، ولاحن عليه حين تضرع بأصابعه فصح أن الماء سلطان جائر.

وهو وصف رائع لفيضان النيل وعلو أمواجه، كأنما يريد أن يبلغ عنان السماء، وحلقت الطير في أعلى عليين فرقا منه واعتصم الناس بالكثبان والجبال. ويصف ابن حجلة زحفه على الفسطاط أو كما يسميها مصر وطغيانه على الجيزة حتى علا قناطرها وجرد القصب من بزته، وطما عليه حتى غرق في قاعه، وقطع طريق الزاوية أو خانقاه الصوفية وأدركهم جميعا الغرق في عبابه، وخر عليهم السقف من فوقهم، ولا ملجأ ولا مناص، وأحاط بجزيرة الروضة إحاطة السوار بالمعصم، ولم تستطع دفع أصابعه التي يقاس بها عادة طوفان فيضانه، ولا رد مجرييه أو كما يسميها ابن أبي حجلة بحرية من

(١١٠٩) يشير إلى أن البحرين يأخذان يخناق جزيرة الروضة حتى تكاد تلفظ أنفاسها.

(١١١٠) تسمى الآن دير النحاس وهي أمام النيل بمصر القديمة.

(١١١١) الجروف: شقوق المحراث ومجاريه.

(١١١٢) شفا جرف: شفا: حرف. جرف: المكان يجرفه الماء.

(١١١٣) الدرق: جمع درقة: الترس.

obeikandl.com

حولها آخذين بخناقها، كأنما يريدان أن تصبح خاوية على عروش. ويصف دار النحاس وما أصابها وأصاب جامعها من مياهه المتدفقة، ويصف ما أنزله بجزيرة أروى ومغانيها وكيف عم ما بها من الخضروات مثل "القلقاس" وقد تكسر، وهو يتضرع بأصابعه إلى ربه إذ أصبح عاليه سافله. وتنبت فوقه فروع ذات ورق عريض، ويتصورها ابن أبي حجلة ستائر له ودرقا أو تروسا غير أنها لم تفده إزاء أمواج النيل وطوفانه.

ويمضي ابن أبي حجلة فيصور ما أصاب بولاق وغير بولاق من النيل في هذه اللغة العذبة التي عرف كيف يصب فيها وصفه للنيل وفيضانه. وهو يكسوها بألوان البديع من جناس وغير جناس، ولا نحس أي كلفة. وقدرته على بث التصاوير في لغته واضحة، وهي تصاوير رسمها مصور ماهر. ومن تتمة براعته الأدبية قدرته على اقتباس الأشعار في موضعها الملائم، وأهم من ذلك قدرته على اقتباس الآيات والكلم القرآنية، فتزيد لغته عذوبة ونصاعة، وهو تارة يأتي بالآيات تامة، وتارة يأتي بكلم منها. ويكثر ذلك في المقامة، وقد وضعنا الآيات بين قوسين هلاليين تمييزا لها. وقد تمثل في القلقاس ببيت يحمل شطره الثاني جناسا طريقا مع اسمه. وفي المقامة روح الدعابة والفكاهة المصرية، وكأنه تشربها في استيطانه بمصر حتى الثمالة. والتورية عنده واضحة في قوله عن النيل بدار النحاس: "قطع الطريق بالجامع الظهر فألحق مجاز بابه بالحقيقة" ولكلمة مجاز معنيان: معنى قريب وهو ما يخالف الحقيقة بدليل اقترانها به، ومعنى بعيد وهو المعبر إلى الجامع. وهو لا يريد المعنى القريب للقلب أي قلب الإنسان مما قد يفهم

مع ظاهر استعارته، وإنما يريد ما حدث للقلقاس من القلب فأصبح أسفله أعلاه، وهي تورية بديعة. ولعل فيما قدمت ما يصور براعة ابن أبي حجلة الأدبية.

القلقشندي[١١١٤]

هو شهاب الدين أحمد بن علي ولد بقلقشندة بالقرب من قليوب سنة ٧٥٦ وإليها ينسب، وهو من اصل عربي صميم إذ ينتمي إلى عشائر فزارة التي استوطنت مصر عقب الفتح الإسلامي. ويبدو أنه نشأ في القاهرة، وأخذ فيها ينهل من حلقات علماء الشافعية وغيرهم في زمنه، وهو مع ذلك يعنى بالأدب والعلوم اللغوية. وفي نحو العشرين من عمره بارحها إلى الإسكندرية ونرى العالم الشافعي الكبير المعروف بابن الملقن يجيزه فيها سنة ٧٧٨ بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي كما يجيزه برواية مؤلفاته في الفقه والحديث وكل ما كان يرويه من الصحاح الستة ومسند الشافعي ومسند ابن حنبل. وسرعان ما تصدر للإفادة وهو في الحادية والعشرين من عمره، وأقبل عليه كثير من التلاميذ يأخذون عنه الفقه والأصول وعلوم العربية. وظل في ذلك نحو ثلاثة عشر عاما، ألف في أثنائها شرحا في الفقه الشافعي على كتاب جامع المختصرات ومختصرات الجوامع سماه الغيوث الهوامع. كما ألف في أنساب القبائل العربية كتابين هما: "نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب" و"قبائل الجمان في التعريف

(١١١٤) أنظر في القلقشندي الضوء اللامع للسخاوي ٢/ ٨ وشذرات الذهب ٧/ ١٤٩ والمنهل الصافي لابن تغري بردي ١/ ٣٣٠ ومقدمة الجزء الأول من صبح الأعشي وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسي ١/ ٤١٦. وراجع في مقامات القلقشندي ومفاخراته صبح الأعشى ١٤/ ١١٢، ٢٠٤، ٢٣١. وصبح الأعشى مطبوع من قديم بدار الكتب المصرية في ١٤ مجلدا.

بقبائل عرب الزمان". ونراه في سنة ٧٩١ يترك مهنة التدريس للعمل بديوان الإنشاء، وكان يرأسه بدر الدين بن علاء الدين بن يحيي بن فضل الله العمري، وهو آخر من وليه من هذا البيت كما مر في ترجمة عمه ابن فضل الله العمري. واعترافا بفضله أنشأ القلقشندي مقامة طويلة في تقريظه صور فيها صناعة الإنشاء وأصولها وعكف توا على تأليف كتابه "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء". وهو موسوعة ضخمة في أربعة عشر مجلدا ظل يعنى بتأليفها في نحو ربع قرن من الزمان حتى سنة ٨١٤ وظل يراجعها ويزيد عليها حتى حين وفاته سنة ٨٢١ للهجرة.

ويبتدئ القلقشندي صبح الأعشى بمقدمة تتناول فضل الكتابة ومدلولها وتفضيل كتابة الإنشاء عن سائر أنواع الكتابة وصفات الكتاب وآدابهم والتعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وقوانينه ووظائفه، ثم تتوالى عشر مقالات أو أقسام كبيرة، والمقالة الأولى تتحدث عما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المعارف والأدوات المتعلقة بصناعته كالخط واللغة والنحو والبلاغة وغير ذلك من مختلف العلوم، يشغل ذلك من الكتاب الجزء الأول بعد المقدمة والجزء الثاني وشطرا غير ليل من الجزء الثالث. والمقالة تبدأ بالمسالك والممالك وبمعلومات تاريخية عن الخلافة الأموية والعباسية وبمعلومات جغرافية وتاريخية مهمة عن مصر من أول دخولها في الإسلام إلى زمن القلقشندي، ويترك مصر إلى الشام وجميع الدول التي كان لها أدنى صلة بمصر من أقصى الشرق إلى السودان وأقصى الغرب والبلدان الأوربية. ويمتد حديث القلقشندي في ذلك إلى الشطر الأكبر من الجزء الخامس. والمقالة الثالثة في أنواع المكاتبات وأسماء الكنى وألقاب أرباب السيوف والأقلام وأصحاب الوظائف من النصارى واليهود والخلفاء العباسيين

والأمويين في الأندلس والفاطميين والموحدين بالمغرب وألقاب الملوك الأقدمين في اليمن وإيران ومصر والروم والحبشة وملوك فرغانة وأوروبا والحبشة مع التفصيل في الألقاب الإسلامية. ويعود إلى الحديث عن الورق والكتابة ويشغل ذلك كله بقية الجزء الخامس والجزء السادس. ويتحدث القلقشندي في المقالة الرابعة عن المكاتبات الصادرة عن ملوك مصر وغيرهم ومصطلحات الكتابة السلطانية والإخوانية ويمتد ذلك في الكتاب إلى شطر من الجزء التاسع، والمقالة الخامسة يوضح فيها القلقشندي الولايات ووظائف الدولة الكبرى ويقدم طائفة كبيرة من البيعات والعهود والتقاليد والمراسيم والتفاويض والتواقيع وخاصة ما يتصل بزمن المماليك. وتحمل هذه المقالة كثيرا من الوثائق التاريخية والاجتماعية المهمة، وهي تشغل بقية الجزء التاسع حتى نهاية الجزء الثاني عشر. والمقالة السادسة في متنوعات من الوصايا الدينية والإطلاقات والمراسيم السلطانية والإقطاعات والأيمان وعقود الصلح والأمانات والهدن. وتشغل هذه الوثائق الجزء الثالث عشر من الكتاب وشطرا من الجزء الرابع عشر. وتعرض بقية هذا الجزء طرائف من المقامات والرسائل والمفاخرات والإجازات والتقريظات والتقاليد، وتلحق بالجزء خاتمة عن البريد وشئون المواصلات والاتصالات بين مصر وغيرها من البلدان الإسلامية.

ونعود إلى مقامته التي أشرنا إليها والتي وصف فيها صناعة الإنشاء وقرظ بها صاحب ديوانها بدر الدين العمري وقد سماها: "الكواكب الدرية في المناقب البدرية" وهي محكية أو مروية على لسان الناثر بن نظام ويلقانا في فواتحها قوله:

obeikandl.com

"لم أزل من قبل أن يبلغ بريد عمري مركز التكليف، ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف، أنصب لاقتناص العلم أشراك التحصيل، وأنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل. أونس من شوارد العقول وحشيها، وأشرد عن روابض المنقول حوشيها، وألتقط ضالة الحكمة حيث وجدتها، وأقيد نادرة العلم حيث أصبتها، مقدما من العلوم أشرفها، ومؤثرا من الفنون ألطفها، معتمدا من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع، مقبلا منه على ما يستجلي حسنه النظر ويستحلي ذكره السمع. . عارفا لكل عالم حقه، وموفيا لكل علم مستحقه، قد استغنيت بكتابي عن خلي ورفيقي، وآثرت بيت خلوتي على شفيقي وشقيقي. . إلى أن أتيح لي من الفتح ما أفاضته النعمة وحصلت من الغنيمة على ما اقتضته القسمة".

وأكبر الظن أن قد أتضح لنا صوت القلقشندي وما يعمد إليه من حسن الجرس في انتخاب ألفاظه وقوافي أسجاعه، بحيث لا نكاد نشعر بتكلف عنده، والجناس يرصع كلامه على نحو ما نرى في التكليف والكلف، وأشراك (حبالات) الصائد، والإشراك، وشوارد وأشرد، والوحشي والحوشي، ويستجلي ويستحلي، وحقه ومستحقه، ورفيقي وشفيقي وشقيقي، وكل ذلك يمر على اللسان والمسع دون أي إحساس بنبو أو كلفة غير مستحبة، وبالمثل يرصع كلامه بطباقات كثيرة من مثل التفرق والجمع والتوحيد والتعطيل وشوارد العقول وروابض المنقول. وفي أثناء ذلك يوشي كلامه بالتورية إذ يقول: "أنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل" والتعطيل رفض التوحيد والشريعة، وهو المعنى القريب لسبق التعطيل بالإشراك والتوحيد، وهو لا يريده، وإنما يريد التعطل عن الاشتغال بالعلم والانصراف عنه. وبالمثل لا يريد بالإشراك الكفر

obeikandi.com

الذي قد يفهم من اقترانه بالتعطيل إنما يريد الشركة أو المشاركة، وأيضا لا يريد بالتوحيد توحيد الله لاقترانه بالتنزيه وإنما يريد الوحدة. والتعبير لذلك كله مليء بتوريات متعاقبة. وبالمثل قوله في نهاية كلامه: "الفتح" وقد تلاه بالغنيمة والقسمة موريا بذلك عن الفتوح العلمي لا كما يظن من السياق الفتح الحربي. وبالمثل كلمة القسمة هو لا يريد بها المعنى القريب الملائم للغنيمة وهو القسمة في الحرب وإنما يريد بها المعنى البعيد وهو الحظ من قولهم قسمة ونصيب.

ولعل خصائص صوت القلقشندي ولغته قد اتضحت لنا تماما فهو كمعاصريه يستخدم السجع ويوشيه بمحسنات البديع وفي مقدمتها، الجناس والطباق والتورية، ونحس عنده بطواعية العبارات المسجوعة ومرانه على استخدام ألوان البديع دون أن نشعر بأي ثقل أو اي عبارة أو كلمة مستكرهة. وإذا مضينا في قراءة المقامة وجدناه يذكر على لسان الناثرين نظام أنه لابد لكل إنسان من حرفة يكتسب بها معاشه وأن الكتابة هي خير الحرف، وأفضل أنواعها الديوانية كتابة الإنشاء، إذ لها الذروة المنيفة والرتبة الشريفة، وأصحابها- كما يقول- أس الملك وعماده، وأركان الملك وأطواده. ولسان المملكة الناطق، وسهمها المفوق الراشق. ويحاور الثائر بن نظام في كتابة الإنشاء والخراج أيهما أفضل؟ ويجيبه أنى لكتاب الأموال التأثير في فل الجيوش من غير قتال، وفتح الحصون من غير نزال. وكأن القلم في يد كاتب الإنشاء ينال من الأعادي ما لا تناله السيوف والرماح. ويأخذ القلقشندي على لسان الناثر بن نظام في بيان ما يلزم كاتب الإنشاء من حفظ كتاب الله وأحاديث رسوله وجوامع كلمه والعلم بالأحكام السلطانية واستظهار أشعار العرب على مر الأزمنة وأمثالهم وأقوال فصحائهم

وخطبهم ورسائلهم مع سعة الباع في اللغة والنحو والتصريف وفي علوم المعاني والبيان والبديع، ومع معرفة الخط وقوانينه وأصوله وقواعده، ومع ما تتم به الصناعة من الوقوف على علم الكلام وأصول الفقه والأحكام الشرعية والمنطق والجدل وأحوال الفرق والنحل وعلم العروض والقوافي والرياضيات والهندسة وعلم الطب والبيطرة وعلمي الأخلاق والسياسة وعلم تدبير المنزل والفراسة. وأيضا لابد من المعرفة بكل ما ذكره القلقشندي بعد ذلك مفصلا في صبحه من شئون الولايات وألوان المكاتبات والبيعات والعهود والتقاليد والمراسيم والتواقيع والمناشير والأيمان والهدن وطرق البلدان ومسالكها. ويتساءل القلقشندي عمن يضم هذه الرتبة الرئيسة والمنقبة الشريفة؟ ويجيبه الناثر بن نظام إن ذلك قاصر على آل فضل الله العمري ومنحصر في سليلة البدر، الذي تدور عليه، فهو ابن بجدتها الذي ترجع في علومها ورسومها وسائر أمورها إليه.

وللقلقشندي مقامة في المفاضلة ما بين العلوم. وهي تنزع منزع المقامة الحصيبية للرشيد بن الزبير التي آلمنا بها فيما مر من حديثنا وفيها يعقد القلقشندي مفاخرة بين نحو سبعين علما ابتدأها بعلم اللغة واختتمها بفن التاريخ ذاكرا فخر كل علم على ما سبقه، محتجا عليه بفضائل موجودة فيه دون سابقه. استهلها ببيان منافع العلوم بعامة، وذكر أنها اجتمعت بوما فتجادلت وتفاخرت، وكل منها ينتصر لنفسه بالحجج والبراهين الدامغة. وقد تلا فخر علم اللغة بفخر علم الصرف ثم بفخر علم النحو عليه قائلا:

obeikandl.com

"هل أنت إلا بضعة[١١١٥] مني، تسند إلي وتنقل عني، لم يزل علمك بابا من أبوابي، وجملتك داخلة في حسابي، حتى ميزك المازني فأفردك بالتصنيف، وتلاه ابن جني فتبعه في التأليف. . وأنت مع ذلك كله مطوي ضمن كتبي، نسبتك متصلة بنسبتي، وحسبك لاحق بحسبي. أنا ملح الكلام، ومسك الختام، لا يستغني عني متكلم، ولا يليق جهلي بعالم ولا متعلم، بي تتبين أحوال الألفاظ المركبة في دلالتها على المقاصد، ويرتفع اللبس على سامعها فيرجع من فهمها بالصلة والعائد".

وهذه القطعة من مفاخرة علم النحو على علم الصرف فضلا عن تصويرها لبراعة القلقشندي البيانية ترينا جانبا من ثقافته بعلمي النحو والصرف، وكانا مندمجين بعضهما ببعض في كتاب سيبويه، وظلا على ذلك بعده حتى أفرد أبو عثمان المازني علم الصرف بالتأليف وتبعه في ذلك ابن جني. ومضى المؤلفون في العلمين تارة يجمعون بينهما، وتارة يفصلون، مما جعل القلقشندي يصور ذلك مرارا على لسان علم النحو قائلا إن علم الصرف باب من أبوابه ينقل عنه ويسند إليه وأنه مطوي في كتبه متصل بنسبه لاحق بحسبه. واستخدم في آخر ما اقتبسناه من تلك المفاخرة مصطلحي الصلة والعائد المعروفين في النحو وهما صلة الموصول وما تحمل من الضمير العائد في عبارتها على الموصول، معبرا بها عن العطية وما يعود منها بالنفع. وللقلقشندي مفاخرة ثانية بين السيف والقلم، ومن قول القلم فيها مفاخرا للسيف:

"مهلا أيها المساجل، وعلى رسلك أيها المغالب والمناضل، لقد أسأت مقالا، ونمقت محالا. . وإني- وإن صغر جرمي- فإني لكبير الفعال، وإن نحف بدني فإني لشديد

(١١١٥) بضعة: قطعة.

obeikandi.com

البأس عند النزال. وإن عري جسمي فكم كسوت عاريا، وإن جرى دمعي فكم أرويت ظاميا، وإن ضاق ذرعي فإني بسعة المجال مشهور، وإن قصر باعي فكم أطلقت أسيرا وأنا في سجن الدواة مأسور". ويمضي القلقشندي بمثل هذه الصياغة الموشاة بالسجع ومحسنات البديع من تصوير وغير تصوير، ودائما نشعر عنده بالطلاقة والسلاسة ونصاعة الكلم.

السيوطي[١١١٦]

هو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد، من سلالة شيخ صوفي أسيوطي هو همام الدين السيوطي، وكان لأسرته وجاهة ورياسة في أسيوط، منهم من ولى الحكم فيها، ومنهم من ولى الحسبة، ومنهم من كان تاجرا ثريا، وأول من خدم العلم من أسرته أبوه، وقد هاجر من بلدته إلى القاهرة ونبه شأنه بين فقهاء الشافعية وأفتى ودرس وناب في الحكم بالقاهرة، وفي سنة ٨٤٩ ولد له عبد الرحمن ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفي الأب، ويبدو أنه ترك له ثروة أعانته على نشأة علمية طيبة، وقد ترجم لنفسه في كتابه: "حسن المحاضرة" ترجمة ضافية، ذكر فيها طائفة من

(١١١٦) أنظر في السيوطي وترجمته حسن المحاضرة ١/ ٣٣٥ والضوي اللامع للسخاوي ج ٤ رقم ٢٠٣ والكواكب السائرة للغزي (نشر الجامعة الأمريكية ببيروت) ١/ ٢٢٦ وتاريخ ابن إياس في مواضع متفرقة وذيل الطبقات الطبرى للشعراني ص ٤ والبدر الطالع للشوكاني ١/ ٣٢٨ والنور السافر للعيدروي ص ٥٤ ودائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة الألمانية ٢/ ١٤٣) . وأنظر في مقاماته مجموعة خطية بعنوان مقامات السيوطي بدار الكتب المصرية رقم ٣٢ مجاميع وطبعت من مقاماته مجموعة بالآستانة. وأنظر في نشاط السيوطي النحوي تأليفا وآراء كتابنا المدارس النحوية ص ٣٦٢.

شيوخه في مقدمتهم الشيخان: البلقيني والمناوي في الفقه الشافعي وتقي الدين الشبلي في الحديث والكافيجي في التفسير والأصول والعربية وعلم المعاني وسيف الدين الحنفي في الكشاف للزمخشري وفي بعض المصنفات البلاغية للسكاكي والقزويني. ويقول إنه شرع في التصنيف سنة ٨٦٦ ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره، كما يقول إنه أفتى في سنة ٨٧١ وعقد له مجلس لإملاء الحديث سنة ٨٧٢. ويذكر أن زار بلادا كثيرة: الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور، كما يذكر أنه تبحر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع، ويقول إنه يستثني الفقه فأستاذه كان أعلم به منه. أما العلوم الستة الباقية فلم يكن أحد يجاريه فيها، ودونها في التعمق العلمي أصول الفقه والجدل والصرف، ودونها هي الأخرى الإنشاء والترسل وعلم الميراث والقراءات ثم الطب. ويذكر أن مشايخه في الرواية سماعا وإجازة كثيرون إذ تبلغ عدتهم نحو مائة وخمسين.

ويمضي السيوطي في ترجمته لنفسه، فيذكر مؤلفاته في العلوم والفنون المختلفة، وقد بلغت أكثر من ثلاثمائة كتابة ورسالة، منها في الحديث النبوي نحو تسعين مصنفا وفي التفسير ومتعلقاته نحو عشرين وفي اللغة وعلوم العربية نحو خمسين وفي الأصول والبلاغة والتصوف نحو عشرين وفي الفقه نحو عشرين أيضا وفي التاريخ والأدب نحو خمسين. وعلى هذا النحو تلقانا لا مؤلفات بل سيول من المؤلفات في كل علم وفن. وبحق يعد السيوطي أكثر علماء هذا العصر تأليفا وإحاطة بالعلوم العربية والشرعية الدينية. وله أكثر من كتاب طبع في العصر الحديث وطارت شهرته، من ذلاك في الحديث النبوي كتابه "جامع الجوامع" وهو معجم واف للأحاديث النبوية، ومن

ذلك في التفسير تفسير الجلالين، ومر حديث عنه في الفصل الثاني، وله لباب العقول في أسباب النزول، وأيضا الدر المنثور في التفسير بالمأثور، وهو مطبوع في ستة مجلدات. وكتابه "الإتقان في علوم القرآن" كتاب رائع. ومن مصنفاته في التاريخ والتراجم تاريخ الخلفاء وهو مطبوع مرارا في الغرب والشرق. وقد عرضنا لنشاطه في هذا الجانب في حديثنا بالفصل الثاني عن التاريخ والمؤرخين. وكان نشاطه اللغوي والنحوي خصبا إلى ابعد غاية، وصورنا ذلك من بعض الوجوه في حديثنا عن اللغة واللغويين والنحاة والنحويين في الفصل الثالث.

وهذا النشاط العلمي الواسع اقترن به نشاط أدبي، فقد كان السيوطي شاعرا، كما كان كاتبا ناثرا، وعنى عناية واسعة بفن المقامة على الطريقة المصرية التي وصفناها، فالمقامة لا تدور على الصعلكة كما كانت عند الهمذاني والحريري، وإنما تدور على المنافرة والمفاخرة، وأكثر من ذلك حتى لتبلغ مقاماته نحو الأربعين، وربما كان أطرفها ما أداره منها حول مفاخرات الأزهار والفواكه والبقول والنقل والعطور، وقد خص الأزهار بمقامته الوردية والفواكه بمقامته التفاحية والبقول الخضراء بمقامته الزمردية والنقل بمقامته الفستقية والعطور بمقامته المسكية، وخص الأحجار الكريمة بمقامته الياقوتية. ونقف قليلا عند مقامته الوردية فعلى غرارها تلك المقامات جميعا، وهي مفاخرة أو مناظرة بين الأزهار والرياحين، استهلها الورد ببيان محاسنه وأنه ملك الرياحين منعش للأرواح ومتاع إلى حين، وأنه ظاهر على أزهار البساتين منتصر منها بقوة الشوكة والصولة. وواضح ما في كلمة الشوكة من تورية إذ لا يريد البأس بشهادة

كلمة الصولة، وإنما يريد الشوكة الحقيقية للورد واحدة أشواكه، وما يلبث الورد أن يدل بفوائده الطيبة، ويرد عليه النرجس مفاخرا بمحاسنه محاولا أن يغض منه، قائلا:

"لقد تجاوزت الحد، يا ورد، وزعمت أنك جمع في فرد، إن اعتقدت أنه لك بحمرتك فخر، فإنه منك فجر. . فاحفظ بالصمت حرمتك، وإلا كسرت بقائم سيفي شوكتك. وإني القائم لله في الدياجى على ساقي، الساهر طول الليل في عبادة ربي فلا تطرف أحداقي. . وأنا فريد الزمان في المحاسن والإحسان، ولهذا قال في كسرى أنوشروان: النرجس ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر. . وأنا المشبه بي عيون الملاح، والمقرون في مهمات الأدواء بالصلاح".

وللسيوطي بجانب ذلك مقامات تجعل محورها الذي تدور عليه مسائل علمية، إذ يورد فيها أسئلة تحمل ألفاظا غريبة ملغزا بها، ثم يذكر جوابها مفسرا لها. مزيلا عنها غرابتها، محاكيا بذلك الحريري في مقامته الطيبية نسبة إلى طيبة أي المدينة وقد ضمنها مائة مسألة فقهية وأجوبتها كأن يقول فيها: "أيستباح ماء الضرير؟" ويجيب أبو زيد السروجي بطل المقامات الحريرية: نعم ويجتنب ماء البصير" والضرير حرف الوادي والبصير الكلب. ونرى السيوطي يستوحي هذه المقامة، فيكتب على غرارها مقامته المكية، ويستهلها على هذا النمط:

"حدثنا هاشم بن القاسم قال: مازلت اقتحم المهامه[١١١٧] المخيفة، وادخل في المسالك العنيفة إلى أن نزلت بمكة الشريفة، فحططت الرحال بعتابها،[١١١٨] وأرحت

(١١١٧) المهامه: القفار والفلوات.

(١١١٨) عتاب: جمع عتبة.

obeikandi.com

النفس من عنائها، وظللت أجوب في مشاهدها وأجول في معاهدها. . وأتردد في الغدو والرواح، وأتزود من تلك الآثار في المساء والصباح، وأتمنى أديبا يسلى بمسامرته الغربة، وأديبا ينيل بمحاضرته الإربة،(١١١٩) فبينما أنا ذات ليلة في المطاف، وقد تسمرت سحائب الألطاف، إذا أنا بشعبة مؤتلفين، وعصبة محتفين، وهم بين سلام وترحيب، وبكاء ونحيب. وفي صدر الحلقة، شاب نحيف الخلقة، قد تدرع بثياب البهاء. قال هاشم بن القاسم: فتساميت إلى لقائه، وتقدمت إلى تلقائه، لأستنور بباطنه على ظاهره، وأستظهر من كامنه على باهره، وأتخذه معاضدا ونصيرا، ومحاضرا وسميرا، فقلت: وعيت ما منك رأيت، وشمت(١١٢٠) ما عنك فهمت، فائت علي ما ادعيت ببرهان من الدلائل، وأجب إلي ما أقترحه عليك من مسائل، فقال: علي الخبير سقطت، ومن البحر لقطت، فأوضح عن مسائلك، وأفصح عن مقالك، فقلت: ما تقول فيمن توضأ ولم يمسح أمه؟ فقال: لم يصح يا أمة".

والأم الأولى الرأس والوضوء بدون مسحها باطل، وقد ألغز السيوطي بها، كما هو واضح. وتوالت الأسئلة على هذا النحو مثل هل يجوز بيع الحر؟ والجواب الجواز، لأن المراد بالحر الفرس الأصيل. ومثل هل تصح الصلاة على الفحل؟ والجواب تصح لأن المراد بالفحل الحصير المتخذ من فحل النخل.

وللسيوطي مقامة ثانية سماها المقامة الأسيوطية بناها على ألغاز نحوية، محاكاة لمقامة الحريري المسماة بالمقامة القطعية وهي المقامة الرابعة والعشرون بين مقاماته. وللسيوطي

(١١١٩) الإربة: الأمنية.

(١١٢٠) شام: نظر متطلعا أو مؤملا شيئا.

مقامة فكهة سماها "رشفة الزلال من السحر الحلال كتبها على لسان عشرين عالما بينهم المقرئ والمفسر والأصولي والفقيه واللغوي والنحوي، وجعل كلا منهم يصف ليلة زفافه على عروسه بلغة علمه ومصطلحاته. ومن مقاماته مقامة تسمى الجيزية جعل موضوعا لغزا شعريا، وكأنه كان يرى المقامة صالحة لأن تعرض أي موضوع حتى لنراه يتخذ نجاة أبوي الرسول صلى الله عليه وسلم من النار موضوعا لإحدى مقاماته، وقد سماها المقامة السندسية، وهي مطبوعة، ونجاة أبوي الرسول من النار لا يشوبها أي شك. إذ هما الطاهران الطيبان الذكيان النيران. ولعل فيما قدمنا ما يدل على الخصائص الأدبية لمقامات السيوطي وبدون ريب كانت ملكاته العلمية أخصب من ملكاته الأدبية.

الشهاب[١١٢١] الخفاجي

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري، ولد لفقيه شافعي بسرياقوس قرب القاهرة سنة ٩٧٧ ونشأ في حجر أبيه يعلمه، ثم اختلف إلى شيوخ الأزهر في زمنه، فأخذ النحو وعلوم العربية عن خاله أبي بكر الشعراني والفقه الشافعي عن مفتي زمنه شمس الدين الرملي. ومضى ينهل من حلقات الشيوخ المختلفين الحديث والتفسير والأدب والمنطق وعلم الأصول، ورحل مبكرا مع أبيه إلى حج بيت الله وأخذ عن شيوخ الحرمين لأيامه. ولم يعد إلى مصر بعد الحج، بل رحل إلى

(١١٢١) أنظر في الشهاب الخفاجي ترجمته لنفسه في نهاية ريحانة الألبا ٢/ ٣٢٥ وما بعدها ونفحة الريحانة ٤/ ٣٩٥ـ ٤٧٧ وخلاصة الأثر ١/ ٣٣١ وسلافة العصر ص ٤٢٠.

obeikandl.com

القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية فأخذ عن شيوخها، وفي طريقه إليها نهل من حلقات الشيوخ في بيت المقدس ودمشق. وعرف فضله في القسطنطينية فعين قاضيا في الروملي ثم سلانيك. وعينه السلطان مراد قاضيا للعسكر بمصر، فظل بها مدة، وزار القسطنطينية فلقيه مفتيها يحيي بن زكريا لقاء سيئا وأمر بعزله. وعاد إلى مصر وعين قاضيا في القاهرة وأخذ يصنف ويحاضر طلابه وأتوه من كل بلد عربي، ومن أهمهم عبد القادر البغدادي صاحب الخزانة، وظل على ذلك حتى وفاته سنة ١٠٦٩ للهجرة، وكان ما حدث له في لقاء المفتي سببا في أن يكتب رسالة في بيان فساد القضاء والحكم في القسطنطينية وأتبعها بخمس مقامات يصور فيها تفاقم الأحوال بعاصمة الخلافة. وكان إلى ذلك عالما ومؤرخا كبيرا، صنف حاشية على تفسير البيضاوي طبعت بمصر في ثمانية مجلدات وحاشية على شفاء القاضي عياض طبعت في أربع مجلدات وله شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل وهو كتاب نفيس طبع مرارا. وصنف في تراجم الأدباء لزمنه في جميع البلدان العربية كتابه "ريحانة الألبا" الذي نذكره كثيرا في هوامش الفترة العثمانية ومثله خبايا الزوايا ولايزال مخطوطا. وكان شاعرا مجيدا، وتحتفظ المكتبة التيمورية بديوانه مخطوطا، وقد أنشد من شعره كثيرا في الريحانة وبالمثل أنشد منه كثيرا المحبي في ترجمته له، وهي في أكثر من مائة صفحة.

وقد دون الشهاب الخفاجي مقاماته التي أشرنا إليها في ترجمته التي عقدها لنفسه في نهاية كتابه الريحانة وسمي أولاها المقامة الرومية وهو يستهلها بقوله: "أنبأنا النعمان بن ماء السماء عن شقيق وقد رحل من وادي العقيق في الحجاز إلى القسطنطينية، ويصفها بأن البحر قد مد لعناقها ساعديه بينما تقبل الأمواج بين يديه، ويصف من بها من

الجواري الحسان والفرسان الشجعان، ثم يهاجم متصوفتها وعلماءها. ولا يلبث أن يكوي المفتي دون ذكر اسمه بسياط من الهجاء المقذع من مثل قوله:

"لو قارنه السعد الأكبر إلى أعلى عليين، حملته بنات نعش إلى أسفل سافلين، أعمى البصيرة والبصر، عار على آدم أبي البشر، إنما خلق اعتذارا لإبليس في ترك السجود، وأنى يقبل له عذر وهو كفور جحود. . وما أحسنه في زوال النعم، وأقبحه إذا قضى له الدهر بدولة وحكم".

ويختم المقامة بمديح السلطان العثماني حينذاك. ويذكر بعدها مقامة الغربة راويا لها عن الربيع ابن ريان عن شقيق بن النعمان، وفيها يصور فساد الأمور في القسطنطينية، ويوجه إلى المفتي المذكور فيها قصيدة هجاء لاذعة. ويتلوها بالمقامة الساسانية، وقد استعار اسمها من الحريري في مقامته التاسعة والأربعين، وفيها صور الفقهاء والعلماء في القسطنطينية كأنهم جميعا أهل كدية واستجداء يتقدمهم المفتي. ويقول قد فقد العلم لولا يقايا شرح الله بهم صدر الدين. ويدعو للدولة العثمانية بالازدهار. ويعارض بالمقامة الرابعة رسالة لرشيد الدين الوطواط المترجم له في قسم إيران كتبها فيمن كان يزاحمه في أداته وأدواته وعمله في ديوان الدولة الخوارزمية وفيها يزري بصاحبه ويحط منه حطا شديدا. ونسج الشهاب الخفاجي على منواله في صنع هذه المقامة قاصدا بها المفتي خصيمه مسميا له باسم الوزير، وفيها يضع منه ويهجوه هجاء مرا، ويصور قصته معه وأنه سمع قول الوشاة ونفاه ويمثل به تمثيلا شديدا. والمقامة الخامسة سماها المقامة المغربية، اقترض اسمها من لدن الحريري وتسميتها لمقامته السادسة عشرة بالمقامة المغربية، والشهاب الخفاجي يكثر في مقامته تلك من بعض الأمثلة والأعلام

والمتقطفات من الأشعار وبعض أقوال الحكماء والألفاظ الغريبة، ولذلك أتبعها بشرح لما استظهره في المقامة من ذلك كله.

٤

المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ في خطب صلاة الجمعة من كل أسبوع، وفي خطب صلاة العيدين، وكان يتولاهما أئمة المساجد، وأحيانا خلفاء الأمة، واشتهر كثير من الوعاظ نسمع عنهم في كل بلدة، غير أن المصادر قلما احتفظت بمجاميع من خطبهم إلا ما كان من خطب ابن نباتة خطيب سيف الدولة الحمداني. وطبيعي أن يشتهر بمصر غير واعظ، ويلقانا في مفتتح هذا العصر أبو الحسن[١١٢٢] علي بن محمد البغدادي المتوفى سنة ٣٣٨ وقد استوطن الفسطاط، وكان له بها مجلس وعظ عظيم. ويستولي المعز لدين الله الفاطمي على مصر، ويؤسس بها الدولة الفاطمية التي ظلت نحو مائتي عام، وكان خطيبا مفوها، وكان يخطب الناس يوم الجمعة بالجامع الأزهر، ولم تحتفظ كتب التاريخ بشيء من خطبه ومواعظه في القاهرة، وقد احتفظت بخطبة[١١٢٣] خطبها عقب وفاة أبيه المنصور في بلدة المنصورة بالقرب من القيروان، بدأها بأسجاع في بيان عظمة الله وتحميده وتمجيده. وكان ابنه العزيز يخطب مثله في الجامع الأزهر حتى إذا بنى الحاكم

(١١٢٢) أنظر فيه حسن المحاضرة للسيوطي ١/ ٥٥١ والعبر ٢/ ٢٤٧.

(١١٢٣) أنظر سيرة الأستاذ جوذر (طبع دار الفكر العربي) ص ٧٦.

obeikandi.com

جامعه أخذ هو ومن جاءوا بعده يخطبون فيه.(١١٢٤) ويبدو أن الخطب والمواعظ كانت تعد لهم- ولمن ينيبونه عنهم من الوزراء- في ديوان الإنشاء. ويذكر الرواة لابن أبي الشخباء كاتب الدواوين في زمن المستنصر مجموعة من المواعظ لعلها كانت خطبا أعدها للخليفة ووزيره بدر الجمالي، وقد اشتهرت في أيامه ببلاغتها، إذ كان- كما مر بنا في ترجمته- كاتبا بارعا، ونقتطف قطعة من إحدى خطبه، إذ يقول(١١٢٥):

"أيها الناس فكوا أنفسكم من حلقات الآمال المتعبة، وخففوا ظهوركم من الآصار المستحقبة،(١١٢٦) ولا تسيموا(١١٢٧) أطماعكم في رياض الأماني المتشعبة، ولا تميلوا صغوكم(١١٢٨) إلى زبارج(١١٢٩) الدنيا المحببة. . أين الجبابرة الماضية المتغلبة، والملوك المعظمة المرجبة(١١٣٠) أولو الحفدة(١١٣١) والحجبة، والزخارف المعجبة، والجيوش الجرارة اللجبة(١١٣٢). . طرقت- والله- خيامهم غير منتهبة، وأصبحت أظفار المنية من مهجهم قانية(١١٣٣) مختضبة، وأكلت لحومهم هوام الأرض السغبة،(١١٣٤) ثم

(١١٢٤) النجوم الزاهرة ٤/ ١٠٢.

(١١٢٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (طبع القاهرة سنة ١٩٢٩) ١٠/ ٥٤٥.

(١١٢٦) الآصار: الذنوب. المستحقبة: المرتكبة.

(١١٢٧) أسام الدابة في المرعى: خلاها ترعى فيه كما تشاء والاستعارة واضحة.

(١١٢٨) الصغو: الشق والجانب.

(١١٢٩) زبارج: جمع زبرج: الحلية والزينة.

(١١٣٠) المرجبة: الموقرة المعظمة.

(١١٣١) الحفدة: الأعوان.

(١١٣٢) الجرارة: الكثيفة. اللجبة: ذات الجلبة والضوضاء.

(١١٣٣) قانية: حمراء. مختضبة: مصبوغة بالخضاب الأحمر.

obeikandi.com

إنهم مجموعون ليوم لا يُقبل فيه عذر ولا معتبة، وتجازى كل نفس بما كانت مكتسبة، فإما سعيدة مقربة، تجري من تحتها الأنهار مثوبة،(١١٣٥) وإما شقية معذبة، في النار مكبكبة(١١٣٦)".

وقد التزم ابن أبي الشخباء في موعظته الباء والهاء في روي أسجاعه، ليعطي الصوت في أول السجعة وما وراءه من كلمات والمقاطع الفرصة كي يعلو، ثم ينخفض فجأة آخر السجعة، وكأنما لم تعد فيه بقية من شدة التأثر. وخصائص ابن أبي الشخباء الفنية التي عرضنا لها في حديثنا عنه واضحة أتم وضوح في هذه القطعة من الخطبة، فهو يعنى بالتصاوير عناية شديدة، إذ يطلب إلى الناس أن يفكوا أنفسهم من سلاسل الآمال المرهقة ويحطوا عن ظهورهم ذنوبهم المقترفة، ويصرفوا أطماعهم عن رياض الأماني المتشعبة، ولا تغرنهم زينة الحياة الدنيا. ويدعو الناس إلى العظة بالأمم الخالية والملوك السالفة وما كانوا فيه من ترف ونعيم. كل ذلك زال إلى غير مآب، وذاقوا كئوس الموت دهاقا، وأكلت هوام الأرض وحشراتها لحومهم. ويرفع أمام أعين الناس يوم القيامة، يوم الجزاء الأكبر، فإما إلى النعيم وإما إلى الجحيم.

ونمضي إلى زمن الأيوبيين، فيلقانا إبراهيم بن منصور المتوفى سنة ٥٩٦ إمام جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وخطيبه، وولى الخطبة بعده ابنه محمد يقول السبكي: "وله

(١١٣٤) السغبة: الجائعة.

(١١٣٥) مثوبة: مكافأة.

(١١٣٦) مكبكبة: مجمعة.

obeikandl.com

ديوان خطب مشهور[١١٣٧]". وطبيعي أن الخطابة لزمن الأيوبيين وحروبهم مع الصليبيين كانت تحض بقوة على جهاد أعداء الله والإسلام وبذل المهج والأرواح في سبيل نصرة دينه الحنيف. ولم تكن خطب الجهاد تلقى في أيام الجمع فحسب. بل كانت تلقى كلما أريد تجميع الشعب لحمل السيف والسلاح. ويروي المقريزي[١١٣٨] أنه حينما علم الفرنج بموت الملك نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧ تقدموا من دمياط تجاه المنصورة "فورد كتاب إلى القاهرة من العسكر أوله: (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) وكان في الكتاب مواعظ بليغة في الحث على الجهاد، فقرئ على منبر جامع القاهرة، وقد جمع الناس لسماعه، فارتجت القاهرة والفسطاط وضواحيهما وخرج الناس للقاء الصليبيين من المدينتين الكبيرتين ومن سائر الأعمال، فاجتمع عالم عظيم سحق الصليبيين سحقا ذريعا كما مر بنا في غير هذا الموضع.

ونلتقي في زمن المماليك بابن المنير[١١٣٩] الإسكندري المتوفى سنة ٦٨٣ المتولي قضاء الإسكندرية وخطابتها مرتين، ويقول صاحب فوات الوفيات: "له ديوان خطب". وكان يعاصره أخطب الخطباء قاطبة أيام المماليك ابن دقيق[١١٤٠] العيد المتوفى سنة ٧٠٢ علم الأعلام وشيخ الإسلام وقاضي القضاة في جميع ديار مصر منذ

(١١٣٧) أنظر ترجمة أبيه عن السبكي ٧/ ٣٧.

(١١٣٨) الخطط ١/ ٤١٣.

(١١٣٩) أنظر في ابن المنير فوات الوفيات ١/ ١٣٢ والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٦١ وحسن المحاضرة ١/ ٣١٦ وشذرات الذهب ٥/ ٣٨١.

(١١٤٠) راجع مصادر ترجمة ابن دقيق العيد ص ١٤٦.

obeikandl.com

سنة ٦٩٥ إلى وفاته. ويشيد مترجموه بورعه وتقواه، ويقول السبكي: "له ديوان خطب مفرد معروف". وكان شاعرا، ويطيل مترجموه في ذكر أشعاره، ولا يعرضون شيئا من خطبه ومواعظه إلا موعظة ذكر السيوطي أنه كتب بها إلى قاضي إخميم بالصعيد، وفيها يقول:(١١٤١)

"نحمد الله الذي (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)، ويمهل حتى يلتبس الإمهال بالإهمال على المغرور، ونذكره بأيام الله (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) ونحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار. وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار، والمتقضي لإصدارها ما لمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب، ومن تقاعد الهمم مما يجب للرب على المربوب،. . ووالله إن الأمر عظيم، والخطب جسيم، ولا أرى. . إلا رجلا نبذ الآخرة وراه، واتخذ إلهه هواه، وقصر همه وهمته على حظ نفسه ودنياه، فغاية مطلبه حب الجاه. . فاتق الله الذي يراك حين تقوم، واقصر أملك عليه فإن المحروم من فضله غير مرحوم. . واجعل أكثر همومك الاستعداد ليوم المعاد، والتأهب لجواب الملك الجواد فإنه يقول: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

ولعل في هذه القطعة ما يصور وعظ ابن دقيق العبد في خطبه وأنه كان يتدفق فيه كالنيل العذب. مما جعل معاصريه يشيدون طويلا برقائق وعظه وكلمه التي كان يخلب بها وبما يضمنها من أي الذكر الحكيم عقول مستمعيه، فيملأ نفوسهم بالإنابة إلى الله. وكان دائما يرفع أمام أعينهم أهوال يوم المحشر يوم تجزى كل نفس بما كسبت وعملت

(١١٤١) حسن المحاضرة ٢/ ١٦٨.

وقدمت، فإذا هم يرتجفون ويبكون بدمع غزار، وقد خشعت قلوبهم وذابت نفوسهم وهلعوا إلى دعاء الله يستغفرونه ويتوبون إليه توبة نصوحا.

وما يزال السيوطي في حسن المحاضرة يسوق إلينا أسماء كبار الوعاظ وخاصة بين الصوفية، ومر بنا في الفصل الأول حديث مفصل عن التصوف بمصر وكيف أخذ يزدهر بها منذ عنيت به الدولة في عهد صلاح الدين، وإنشائه لخانقاه سعيد السعداء. واتسع بناء الخانقاهات بعده في أيام المماليك، وكانت دورا كبيرة للنسك ودراسة العلوم الدينية على نحو ما يذكرون عن خانقاه سرياقوس التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون، ومر حديث مفصل عنها وعن غيرها من الخانقاهات المملوكية. وبنوا بجانبها للصوفية اثنى عشر رباطا. كل ذلك عمل على ازدهار التصوف بمصر منذ القرن السادس الهجري. وكان كثير من الصوفية يتبعون الطريقتين العراقيتين: القادرية الجيلانية والرفاعية.

ولم تشع طريقة في العالم الإسلامي إلا كان لها فروع وأتباع في مصر، وأخذت تؤسس بها طرق مشهورة في مقدمتها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى مؤسسها أبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ وسنخصه بترجمة قصيرة. وتلتها سريعا الطريقة البرهامية نسبة إلى إبراهيم[١١٤٢] الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٢ بدسوق بالقرب من رشيد، وهو من ذرية على بن أبي طالب، والطريقة الأحمدية نسبة إلى أحمد[١١٤٣] البدوي المتوفى

(١١٤٢) أنظر الدسوقي في الطبقات الكبرى للشعراني (طبع القاهرة سة ١٢٨٦ هـ) ١/ ١٨٣ وخطط على مبارك ١١/ ٧.

(١١٤٣) راجع ترجمة البدوي في الشعراني ١/ ٢٠٢ والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٥٣ وحسن المحاضرة ١/ ٥٢١

سنة ٦٧٥ بطنطا وهو أيضا سليل علي بن أبي طالب. وكان لكل طريقة ورد خاص ترده، كله ابتهالات إلى الله ومناجيات وأدعية، وكثرت على ألسنة المتصوفة هذه الأدعية والمناجيات والابتهالات والأوراد، وسنعرض لهذا الجانب عند أبي الحسن الشاذلي في ترجمته. ونسوق قطعة من ورد أو حزب إبراهيم الدسوقي، يقول مناجيا ربه:

"بأسمائك يا رب العالمين. بالسموات القائمات، فهن بالقدرة واقفات، بالسبع المتطابقات، بالحجب المترادفات، بمواقف الأملاك (الملائكة) في مجاري الأفلاك. بالكرسي البسيط، بالعرش المحيط. . اللهم احرسني من كيد الفاسق، ومن سطوة المارق، ومن لدغة المنافق".

وكان يعاصر الدسوقي والبدوي أبو العباس(١١٤٤) المرسي المتوفى سنة ٦٨٦ تلميذ أبي الحسن الشاذلي، وهو أندلسي من مرسية، ولد بها سنة ٦١٦ للهجرة، وفي الرابعة والعشرين من سنه خرج إلى الحج، وفي طريقه توقف بتونس، وفيها تعرف على الصوفي الكبير أبي الحسن الشاذلي، وأصبح أقرب أتباعه ومريديه إليه، حتى إذا رحل إلى الإسكندرية سنة ٦٤٢ رحل معه. وكان لا يبرح مجلسه، وزوجه ابنته، وأعلن إلى أتباعه في جامع العطارين بالإسكندرية أنه خليفته، واستأذن شيخه في السفر إلى القاهرة

وشذرات الذهب ٥/ ٣٤٦.

(١١٤٤) أنظر في ترجمة أبي العباس كتاب لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن وراجع الشعراني ٢/ ١٤ والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٧١ وحسن المحاضرة ١/ ٥٢٣ والوافي ٧/ ٢٦٤ وشذرات الذهب ٥/ ٢٧٣.

obeikandl.com

للتدريس بمساجدها ونشر طريقته بها، فأذن له، وكان يلقى بالقرب من محطة باب الحديد. وكانت حلقته في الجامعين تزدحم بالطلاب والعلماء. وتوفي أستاذه سنة ٦٥٦ فخلفه على الطريقة، وكان أكثر مقامه بالإسكندرية، ومن حين إلى حين ينزل القاهرة، ناشرا هنا وهناك الطريقة الشاذلية، ولتلميذه ابن عطاء الله كتاب قصر عليه وعلى أستاذه الشاذلي سماه "لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن" ويعد جامعه اليوم أكبر جوامع الإسكندرية، ويورد ابن عطاء الله كثيرا من أقواله، كما يورد له وردا أو حزبا نقتطف من ابتهالاته وأدعيته قوله:(١١٤٥)

"اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك، والمحبة لك، والشوق إليك، والأنس بك، والرضا منك، والطاعة لأمرك، على بساط مشاهدتك، ناظرين منك إليك، وناطقين بك عنك. . اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيننا وبين الصدق والنية والإخلاص والخشوع والهيبة والحياء والمراقبة ونور اليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصمة والنشاط والقوة والستر والمغفرة والفصاحة والبيان والفهم في القرآن وخصنا منك بالمحبة. . وآتنا العلم اللدني والعمل الصالح والرزق الهني على بساط علم التوحيد والشرع. . وسخر لي الرزق واعصمني من تعلق الهمة به ومن الذل للخلق بسببه. . وهب لي لسانا لا يفتر عن ذكرك وقلبا يسمع بالحق منك. . وبغض لنا الدنيا وحبب لنا الآخرة. . اللهم لا تعذبنا بإرادتنا وحب شهواتنا فنشتغل أو نحجب

(١١٤٥) لطائف المنن لابن عطاء الله على هامش كتاب لطائف المنن والأخلاق للشعراني (طبع المطبعة اليمنية بمصر) ٢/ ٣٧.

obeikandi.com

أو نفرح بوجود مرادنا أو نحزن أو نسخط. . وأنت أعلم بقلوبنا فارحمنا بالنعيم الأكبر والمزيد الأفضل والنور الأكمل".

والورد طويل ويتخلله كثير من الآيات القرآنية، وهو مناجاة روحية صافية للذات العلية. ويتضح فيه كيف تجمع الطريقة الشاذلية بين علم الشريعة وعلم الحقيقة الصوفية، ولعل ذلك ما جعلها تشدد على أتباعها في أن لا يلبسوا المرقعات وأن لا يسألوا الناس شيئا مما في أيديهم من مال أو غذاء مع الاعتماد على النفس في كسب القوت عن طريق التجارة والزراعة وغيرهما. وبذلك وصلت بين أتباعها والحياة والشريعة، وسنخص ابن عطاء الله تلميذ أبي العباس المرسي بترجمة قصيرة. ومن متصوفة مصر المعاصرين لأبي العباس عبد العزيز(١١٤٦) الدميري الديريني، ولد بقرية دميرة بالقرب من دمياط سنة ٦١٢ وتوفي بديرين في الصعيد سنة ٦٩٤ وكان يتجول في ريف مصر شمالا وجنوبا، وكان فقيها شافعيا، ونظم كتاب التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي، ونظم سيرة نبوية، وكان له تفسير في مجلدين. وكان متقشفا مخشوشنا، وله في التصوف كتاب "طهارة القلوب في ذكر علام الغيوب" وهو يمتلئ بمناجيات إلهية بديعة من مثل قوله:

"إلهي، عرفتنا بربوبيتك، وغرقتنا في بحر نعمتك، ودعوتنا إلى دار قدسك، ونعمتنا بذكرك وأنسك.

(١١٤٦) أنظر في طبقات الشافعية للسبكي ٨/ ١٩٩ وحسن المحاضرة ١/ ٤٢١ والشعراني ١/ ٢٢٤ ومناجاته المذكورة في السبكي.

إلهي، ما عصيناك جهلا بعقابك، ولا تعرضا لعذابك، ولكن سولت[١١٤٧] لنا نفوسنا، وأعانتنا شقوتنا، وغرنا سترك علينا، وأطمعنا في عفوك برك بنا، فالآن من عذابك من يستنقذنا؟ وبحبل من نعتصم إن قطعت حبلك عنا؟ واخجلتنا من الوقوف غدا بين يديك، وافضيحتنا إذا عرضت أعمالنا القبيحة عليك.

اللهم اغفر ما علمت، ولا تهتك ما سترت.

إلهي، إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل، حيث علمنا أن لنا ربا يغفر الذنوب ولا يبالي".

وهي مناجاة لله بديعة صافية كل الصفاء نقية كل النقاء، مناجاة تنبئ عن قصور العبد وتعلقه بربه وطمعه في غفرانه وعفوه إذ يرى كل صلاته ونسكه وعبادته وكل ما قدم يقصر عن حق إلهه. ويروي السبكي مناجاة لصوفي شاذلي من صوفية القرن الثامن هو شمس[١١٤٨] الدين بن اللبان محمد ابن أحمد المتوفى سنة ٧٤٩ وقد أخذ الطريقة الشاذلية عن ختنه (والد زوجته) ياقوت العرشي تلميذ أبي العباس المرسي، ويقول السبكي إنه نقل مناجاته عن كتابه "المتشابه في الربانيات" وهي تطرد على هذا النمط.

"إلهي! جلت عظمتك أن يعصيك عاص، أو ينساك ناس، ولكن أوحيت روح أوامرك في أسرار الكائنات، فذكرك الناسي بنسيانه، وأطاعك العاصي بعصيانه، وإن

(١١٤٧) سولت: أغرت، وتقال في الشرور والسوء.

(١١٤٨) أنظر في اللبان في الدرر الكامنة ٣/ ٤٢٠ والسبكي ٩/ ٩٤ وحسن المحاضرة ١/ ٤٢٨ والوافي بالوفيات للصفدي ٢/ ١٦٨ ومرآة الحنان ٤/ ٣٣٣ وشذرات الذهب ٦/ ١٦٣.

obeikandl.com

من شيء إلا يسبح بحمدك، إن عصى داعي إيمانه فقد أطاع داعي سلطانك، ولكن قامت عليه حجتك، ولله الحجة البالغة: (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ).

ويبدو أن كتاب المتشابه في الربانيات كان شطحات كثيرة على نحو ما نرى الآن من قوله: إن العاصي يطيع الله بعصيانه وإنه إن عصى داعي إيمانه فقد أطاع داعي سلطانه، فكيف يعد العاصي لله مطيعا له؟ وإذن لا يكون في الدنيا عاص ومطيع. ولذلك يقول السبكي إن هذه المناجاة مما أخذ عليه. ويقول ابن حجر: ضبطت عليه كلمات على طريق الاتحادية القائلين بالحلول، كما يقول إن له كتابا على لسان الصوفية، فيه من إشارات الصوفية القائلين بالوحدة، وهو في غاية الحلاوة لفظا وفي المعنى سم قاتل.

وكان يعاصره يوسف(١١٤٩) بن عبد الله العجمي الكردي المصري الدار المتوفى سنة ٧٦٨ وقد دفن بزاويته بقرافة مصر. ويقول ابن حجر: "له زوايا في عدة بلاد". ويصفه ابن تغري بردي بقوله: "الإمام العالم المسلك الصوفي العارف بالله تعالى المعتقد. . وقبره يقصد للزيارة، كان شيخا حقيقة ومقتدي طريقة، كان إمام المسلكين (آخذي العهود على المريدين) في عصره وله رسالة في التصوف سماها "ريحان القلوب والتوصل إلى المحبوب". ومن هذه الرسالة مخطوطتان بدار الكتب المصرية وقد ذكر فيها شرائط التوبة ولبس الخرقة أو المرقعة الصوفية وتلقين الذكر. . ويقول ابن تغري بردي: انتفع بصحبته جماعة من العلماء والصلحاء والفقهاء، وكان على قدم هائل، كان غالب علماء عصره يقتدون به، وكان له أوراد وأذكار هائلة" وهذه الأذكار والأوراد

(١١٤٩) أنظر في يوسف العجمي النجوم الزاهرة ١١/ ٩٤ والدرر الكامنة لابن حجر ٥/ ٢٣٨ والشعراني ٢/ ٧١ وحسن المحاضرة ١/ ٤٢٦.

سقطت من يد الزمن. وهو وأوراده رمز لمن جاء بعده من المتصوفة في أيام المماليك وما كان لهم من أوراد وأحزاب سقطت من يد الزمن.

ونمضي إلى أيام العثمانيين ونلتقي في مطلعها بأبي السعود[١١٥٠] الجارحي المتصوف المتوفى سنة ٩٣٠ ويشيد به الشعراني، وأهم منه الشعراني[١١٥١] نفسه المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألممنا به في حديثنا عن الزهد والتصوف في الفصل الأول، وفي كتابه "لطائف المنن والأخلاق" بيان المؤلفات التي قرأها وبأساتذته ومراحل حياته الصوفية والأخلاقية التي التزمها في حياته. ومع أنه صوفي سني نراه يدافع عن أستاذه الروحي: ابن عربي، محاولا تأويل عباراته على نحو ما يصور ذلك في كتابه "الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر". وتظل الطرق التي عرضنا لها في غير هذا الموضع ناشطة بمصر. ويعلو شأن الطريقة الخلوتية المنسوبة إلى الشيخ محمد الخلوتي منذ نزل القاهرة الشيخ مصطفى[١١٥٢] بن كمال الدين البكري الناشئ ببيت المقدس، وقد طوف في بلدان الشام والعراق وتركيا وحج مرارا وسكن بأخرة القاهرة وتوفي بها سنة ١١٦٢ ويعرف به الجبرتي قائلا: شيخ الطريقة والحقيقة، قدوة السالكين، ومربي المريدين الإمام

(١١٥٠) راجع فيه الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ١٤٣.

(١١٥١) أنظر في ترجمة الشعراني كتابه "لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق، والكواكب السائرة ٢/ ٢٥٩ وطبقات المناوى الكبرى ٢/ ٤٩٥ والخطط التوفيقية ١٤/ ١٠٩ وكتاب الشعراني والتصوف الإسلامي لطه عبد الباقي سرور، والشعراني إمام التصوف في عصره لتوفيق الطويل.

(١١٥٢) أنظر في ترجمة مصطفى البكري الصديق الخلوتي تاريخ الجبرتي ١/ ١٦٥ وسلك الدرر ٤/ ١٩٠ ودائرة المعارف الإسلامية في البكري.

obeikandl.com

المسلك، تآليفه تقارب المائتين، وأوراده أكثر من ستين وردا. وأجهلها ورد السحر، ونقتطف من مناجياته لربه فيه وابتهالاته قوله:[١١٥٣]

"إلهي، أنت المدعو بكل لسان، والمقصود في كل آن.

إلهي، أنت قلت: (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) فها نحن متجهون إليك بكليتنا فلا تردنا، واستجب لنا كما وعدتنا.

إلهي، أين المفر منك وأنت المحيط بالأكوان؟ وكيف البراح عنك وأنت الذي قيدتنا بلطائف الإحسان.

إلهي، بحق جمالك الذي فتت به أكباد المحبين، وبجلالك الذي تحيرت في عظمته ألباب العارفين.

إلهي، بالنور المحمدي الذي رفعت على كل رفيع مقامه، وضربت فوق خزانة أسرار ألوهيتك أعلامه، افتح لنا فتحا صمدانيا وعلما ربانيا، وتجليا رحمانيا، وفيضا إحسانيا".

وعن هذا الشيخ أخذ الطريقة الخلوتية جمع من العلماء المصريين الأعلام في مقدمتهم الشيخ الحفني شيخ الجامع الأزهر وهو ملتقي أسانيد الطريقة بعده، وممن أخذها عنه الشيخ أحمد الدردير. وسنخصه بترجمة قصيرة بعد أبي الحسن الشاذلي وابن عطاء الله السكندري.

(١١٥٣) أنظر في ورد السحر للبكري مجموع الأوراد الكبير (طبع مكتبة النصر) ص ٧٨ـ ١١٨.

obeikandl.com

أبو الحسن[١١٥٤] الشاذلي

هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار، من سلالة الحسن بن أبي طالب، ولد سنة ٥٩٣ للهجرة بقرية تسمى غمارة بالقرب من سبتة في المغرب الأقصى، وعلى عادة لداته في النشأة بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم وأكب على العلوم الإسلامية واللغوية حتى أتقنها. ولم يكد يبلغ نحو العشرين من عمره حتى أحس برغبة شديدة للنهل من معين الصوفية، فرحل إلى المشرق ليلقى العلماء النساك، ونزل تونس، ولقي فيها وفي المدن المغربية قبلها حملة طريقة الصوفي المغربي أبي مدين. ولم يلبث أن عزم على أداء فريضة الحج فزار مصر ودخل الحجاز، ثم زار فلسطين والشام والعراق، وتعرف في بغداد على صوفي رفاعي هو أبو الفتح الواسطي، وكأنما كان باب سلوكه الصوفي. وعاد إلى المغرب، فكان من محاسن الصدف أن تعرف في فاس على صوفي هو عبد السلام بن مشيش، فلزمه، واتخذه إماما وشيخا، وقد دفعه دفعا إلى أن يعيش للتصوف ومحبة الله، إذ كان يكرر عليه قوله: "أدمن على الشرب والمحبة وكأسهما مع السكر والصحو، كلما أفقت أو تيقظت شربت، حتى يكون سكرك به، وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشرب والشراب والكأس، بما يبدو لك من نور جماله، وقدس كما له وجلاله". ولم

(١١٥٤) راجع ترجمة الشاذلي في كتاب "لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن" وحسن المحاضرة ١/ ٥٢٠ ونكت الهميان ص ٣١٣ والشعراني ف الطبقات ٢/ ٤ والنجوم الزاهرة ٧/ ٦٩ وراجع المفاخر العلية في المآثر الشاذلية لابن عياد وهو مطبوع، وأبو الحسن الشاذلي للدكتور عبد الحليم محمود، وأعلام الاسكندرية في العصر الإسلامي للدكتور جمال الدين الشيال ص ١٦١ والأدب في التراث الصوفي للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ص ١٥٠.

obeikandl.com

يلبث شيخه أن أمره بالهجرة إلى شاذلة بالقرب من تونس في إفريقية الوسطى، فهاجر إليها، وهناك أخذ ينشر في الناس الدعوة إلى التصوف، ولصقت البلدة باسمه حتى اشتهر باسم الشاذلي وكان يتركها أحيانا إلى تونس وفيها تعرف بتلميذه أبي العباس المرسي وتوثقت الصلة بينهما في الله ومحبته حتى قال له الشاذلي يوما: "ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا".

وهاجر الشاذلي وتلميذه أبو العباس وجمع من مريديه إلى الإسكندرية في سنة ٦٤ وبها ألقى عصا تسايره، وذاع صيته لا في الإسكندرية وحدها، بل أيضا في القاهرة، إذ كان يتردد عليها لنشر طريقته الصوفية، وكان يحضر مجالسه في مدرسة الحديث الكاملية شيوخ الإسلام حينئذ وأكابر العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين. . وكان يلقي دروسه ومواعظه في الإسكندرية بجامع العطارين. وطار صيته فيها وفي القاهرة والمدن المصرية، فانهال المصريون عليه، يطلبون القرب من الله على يديه، وفي هذه الأثناء أصاب عينيه رمد أفقده بصره. وكان يعجب بأبي العباس المرسي منذ لقائه به فأعلن في أتباعه- كما مر بنا- أنه خليفته على طريقته، وهي تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب. والشعور الباطني الصوفي.

وهاجم الشاذلي بقوة حياة الخانقاهات والتسول التي كان يعيشها الدراويش الرحل، فعنده أن الصوفي الحقيقي لا يكون سائلا ولا طفيليا يمد يده للغير، بل لابد أن يعتمد على نفسه في كسب قوته، فتصوفه أو طريقته الصوفية كانت طريقة سنية. وكان يدعو مريديه لحمل السلاح ضد أعداء الإسلام الصليبيين، وكان يرحل معهم إلى ميادين الحرب كما حدث في موقعة المنصورة المشهورة لعهد السلطان نجم الدين أيوب

obeikandi.com

وابنه توران شاه حين اقتحم لويس التاسع ملك فرنسا دمياط وتقدم منها سنة ٦٤٧ بجيشه نحو المنصورة إذ نجده مع مريديه هناك، ونجد معه شيوخ الدين وعلماءه الكبار من مثل العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد ومحيي الدين بن سراقة وغيرهم من جلة الشيوخ. وحدث أن تكلموا يوما واعظين، وجاء الدور في الكلام والخطابة على أبي الحسن، فتكلم- كما يقول الرواة- بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة، وانبهر الشيخ العز بن عبد السلام، فقام هاتفا منبهرا قائلا: اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله". وأنزل الجيش المصري بالصليبين هزيمة ساحقة، واستسلم ملكهم لويس التاسع ذليلا كسيرا، وارتحلوا عن دمياط خاسئين مدحورين إلى البحر المتوسط وما وراءه.

وعاد أبو الحسن الشاذلي إلى الإسكندرية والعلماء والناس يكبون عليه للاستزادة من علمه وطريقته وتعاليمه. حتى إذا كانت سنة ٦٥٦ خرج إلى الحج عن طريق القصير ومعه أبو العباس وبعض مريديه، وفي صحراء عيذاب بين قنا والقصير أحس بدنو أجله فأعلن إلى أتباعه استخلافه عليهم أبا العباس المرسي، ولم يلبث أن أسلم روحه إلى بارئه. وتدل أقواله وأدعيته وابتهالاته ومناجياته لربه في أوراده على أنه كان يملك ناصية العربية مصرفا أزمتها كيف شاء، وله أوراد كثيرة، وقد ساق ابن عطاء الله منها في كتابه لطائف المنن أربعة أوراد له أو أحزاب، لعل أهمها الحزب المسمى بالحزب الكبير وهو يستهله ويتخلله بآيات قرآنية كثيرة، ويناجي ربه فيه بمثل قوله:

"اللهم إنك تعلم أني بالجهالة معروفة، وأنت بالعلم موصوف، وقد وسعت كل شيء من جهالتي بعلمك فسع ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك واغفر لي إنك على كل شيء قدير.

يا رزاق يا قوي يا عزيز! لك مقاليد السموات والأرض تبسط الرزق لمن تشاء وتقدر فابسط لنا من الرزق ما توصلنا به إلى رحمتك، ومن رحمتك ما تحول به بيننا وبين نقمتك، ومن حلمك ما يسعنا به عفوك، واختم لنا بالسعادة التي ختمت بها لأوليائك، واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك، وزحزحنا عن حب الدنيا وعن نار الشهوة وأدخلنا بفضلك في ميادين الرحمة، واسكنا من نورك جلابيب العصمة، واجعل لنا ظهيرا من عقولنا، ومهيمنا من أرواحنا، ومسخرا من أنفسنا (كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا)".

اللهم إنا نسألك إيمانا دائما، ونسألك قلبا خاشعا، ونسألك علما نافعا، ونسألك يقينا صادقا، ونسألك دينا قيما، ونسألك العافية من كل بلية، ونسألك الشكر على العافية ونسألك الغنى عن الناس".

والمناجاة طويلة، وهو يلم فيها- كما نرى- بطلب المغفرة والرحمة من ربه وأن يكون خير أيامه وأسعدها يوم لقائه وأن ينفره من حب الدنيا ويعصمه من شهواتها وأن يجعل حياته نسكا وعبادة له. وما يزال في الورد يتمنى أن يهبه الله رضاه وحبه وأن يدفع عنه كل ضر وأذى وأن يغنيه عن السؤال وأن ينعم عليه بعز الدنيا من الإيمان والمعرفة وبعز الآخرة من اللقاء والمشاهدة. ولم يكن يطلب إلى أصحابه أن يشقوا على أنفسهم في العبادة والنسك وأن يلبسوا الخرق والمرقعات بل كان يطلب إليهم الرفق بأنفسهم في

obeikandi.com

التقوى والعبادة، وأن يشتركوا في الحياة مع مجتمعهم تجارا وزراعا وأصحاب حرف، فإن العمل نفسه يعد عبادة. وبذلك كان يدعو أتباعه أن لا يكونوا عالة على المجتمع بل يعملوا ويجدوا مع صفاء النفس وسمو الروح، ومع التقوى والعمل الصالح. وشاعت طريقته في الديار المصرية وفي شمال أفريقيا وخاصة في الشمال الغربي، وتفرعت منها أكثر من عشرة طرق من أهمها الطريقتان الوفائية والخلوتية.

ابن عطاء(١١٥٥) الله السكندري

هو تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري، ولد بالإسكندرية في أواخر العقد السادس من القرن السابع، واستهل حياته بحفظ القرآن الكريم، ثم أخذ يعكف على دراسة العلوم الدينية واللغوية حتى برع فيها، يقول السيوطي: "كان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث ونحو وأصول وفقه على مذهب مالك". ويبدو أنه جمع إلى مذهب مالك دراسة مذهب الشافعي مما جعل السبكي يترجم له في طبقات الشافعية، وله في مذهب مالك مختصر تهذيب المدونة للبرادعي. وكان في أول أمره منصرفا عن التصوف والصوفية. بل كان ينكر عليهم طريقتهم، حتى تصادف أن استمع إلى أبي العباس المرسي تلميذ أبي الحسن الشاذلي، فأعجب به، وأخذ يقتنع بطريقة القوم، حتى أصبح أكبر مريد لأبي العباس وآثر

(١١٥٥) أنظر في ابن عطاء الله النجوم الزاهرة ٨/ ٢٨٠ وطبقات الشافعية ٩/ ٢٣ والدرر الكامنة ١/ ٢٩١ وحسن المحاضرة ١/ ٤٢٤ وطبقات الشعراني ٢/ ١٤ والبدر الطالع ١/ ١٠٧ والديباج المذهب لابن فرحون (طبع القاهرة ١٣٥١ هـ.) ص ٧٠ والوافي ٨/ ٥٧ وشذرات الذهب ٦/ ١٩ وكتابا عنه للدكتور التفتازاني وأعلام الاسكندرية للدكتور الشيال ص ٢١٤.

تلاميذه عنده، ولما توفي سنة ٦٨٥ خلفه على رياسة الطريقة الشاذلية. وله فضل كبير في نشرها، فقد كان فقيها كبيرا، كما كان صوفيا شاذليا لسنا، فجلس مجلس أستاذه يدرس للناس الفقه والتفسير ويعظهم، فيبلغ كل ما يريد من التأثير فيهم.

واستوطن ابن عطاء الله القاهرة، واتخذ له حلقة في الجامع الأزهر تارة وفي المدرسة المنصورية تارة أخرى يعظ الناس ويرشدهم، وأكب عليه الفقهاء وفي مقدمتهم تقي الدين السبكي، وأكبت عليه العامة، ودخل كثيرون في طريقته لروعة وعظه وحسن بيانه، وخاصة أنه كان يمزج مواعظه بالقرآن الكريم والحديث النبوي وأقوال السلف. فكثر أتباعه، وأصبح لطريقته الشاذلية شأن عظيم، وكان يكرر ويردد دائما مبدأها الأساسي وهو أن الصوفي الحقيقي من يجمع بين علوم الشريعة وعلوم الصوفية، وأنه لا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل، وأن على المتصوف أن يتكسب قوته وما يقيم به أوده، وأما من يسألون الناس ويتضرعون إليهم طالبين ما يسدون به رمقهم فليسوا من التصوف في شيء. فالصوفي يعمل ويجني ثمرة علمه ولا يسأل سوى ربه راضيا برزقه ونصيبه من دنياه، ويقول ابن حجر: "كان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه" وألف في مناقب شيخه أبي العباس المرسي وأبي الحسن الشاذلي كتابه "لطائف المنن" فأرسى به الطريقة وتعاليمها وكتب لها الذيوع. ويقول الذهبي: "كانت له جلالة عجيبة ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل" ويقول السبكي: "كان إماما عارفا صاحب إشارات وكرامات وقدم راسخ في التصوف" ويقول صاحب النجوم الزاهرة في التعريف به "الشيخ القدوة العارف بالله تعالى الصوفي الواعظ المذكر المسلك، وكان يحضر حلقة وعظه خلق كثير، وكان لوعظه تأثير في القلوب وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق

obeikandi.com

وأرباب الطريق". وصنف ابن عطاء الله "لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن والتنوير في إسقاط التدبير، والمرقى إلى القدس الأبقى، وتاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس، ومفتاح[١١٥٦] الفلاح ومصباح الأرواح". وواضح من عنوانات هذه المصنفات أنها كتب صوفية. وله أقوال وكلمات بليغة دونها أصحابه في كتاب باسم "حكيم ابن عطاء الله السكندري" وهي منشورة. وله أشعار على طريقة الصوفية. أنشدنا منها مقطوعة في غير هذا الموضع. وتوفي بالمدرسة المنصورية كهلا سنة ٧٠٩ ودفن بجبانة[١١٥٧] آل أبي الوفا شرقي جبانة الإمام الليث، وكانت جنازته- كما يقول مترجموه- حفلة لكثرة أتباعه من الفقهاء والعلماء والعامة.

وكان ابن عطاء الله إذا وعظ استرسل في وعظه، وقد يذكر أية قرآنية أو حديثا نبويا فتتوالى سيول القول، من ذلك ما جاء في وصفه للرسول صلى الله عليه وسلم في كتابه "لطائف المنن" إذ يقول:

"مشرق الأنوار ومعدن الأسرار، من له الفتح والختام، والحائز للمقامات العلية بالتمام، رسول رب العالمين، وسيد الأولين والآخرين، محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين. فهو نور الأنوار وسر الأسرار، إليه تنزل الأسرار الربانية، وعنه تؤخذ المعارف الإلهية. أخذ أهل الظاهر عنه ظاهرهم، وأخذ أهل الباطن (الصوفية) منه باطنهم، وقال صلى الله عليه وسلم: العلماء ورثة الأنبياء، وكل على قدر إرثه، وإرثه

(١١٥٦) أنظره مطبوعا مع لطائف المنن على هامش كتاب لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق للشعراني (طبع المطبعة الميمنية).

(١١٥٧) في الإسكندرية مسجد منسوب إليه، ولعله كان يلقي فيه أحيانا بعض مواعظه.

obeikandi.com

على قدر نوره، ونوره على قدر فتحه، وفتحه على قدر صفاء قلبه، وصفاء قلبه على قدر معرفته بربه، ومعرفته بربه على حسب ما سبق له من حبه".

وتكثر عنده مثل هذه التفريعات والتوليدات في الكلام، وكأنما يستمد من معين ذهني وروحي لا ينضب، مع التنويع الدائم في الأفكار وتشعيبها شعبا وفروعا لا تكاد تقف عند حد، وكأنما يريد أن يشيد منها طبقات، بعضها فوق بعض، أو كأنما يريد أن يرفع منها صروحا شاهقة. وقد يستعين بالتكرار مع تلوين الأسلوب ألوانا مختلفة على شاكلة قوله واعظا:

"كيف يتصور أن يحجب الله شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء؟

يا عجبا كيف يظهر الوجود في العدم، أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم؟"

والعظة تدور على أن لا حجاب بين العبد ومولاه إذ هو مظهر الكائنات جميعا وموجدها، وجميعها تشهد بوجوده، وإنه ليتجلى فيها جميعا. وقد ظهر لها وعرفته وسبحته، وإن وجوده لأبدي أزلي، وإنه لواجب الوجود وحده دون سواه، وإنه لأقرب

obeikandl.com

إلى الإنسان من كل شيء، أقرب إليه من حبل الوريد. ويا عجبا كيف يحجبه الفاني الحادث، وهو القديم الأزلي. وهو يسر في العرض وروعة بيان وبلاغة. ويروى أن السلطان لاجين طلبه ليعظه، وسأله في أثناء وعظه عن الشكر، فأجابه توا:

"الشكر على ثلاثة أقسام: "شكر باللسان، وشكر بالأركان، وشكر بالجنان. فشكر اللسان: التحدث بالنعمة، قال تعالى: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ). وشكر الأركان: العمل بطاعة الله قال تعالى: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا). وشكر الجنان: الاعتراف بأن الله وحده هو المنعم قال تعالى: (وما بكم من نعمة فمن الله). وسأله لاجين: ما الذي يصير به الشاكر شاكرا؟ فقال: إذا كان ذا علم فبالتبيين والإرشاد، وإذا كان ذا غنى بالبذل والإيثار للعباد، وإذا كان ذا جاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد". وبحق ما قاله الشعراني من أن لكلامه حلاوة.

أحمد[١١٥٨] الدردير

هو أحمد بن محمد العدوي المالكي الأزهري الشهير بالدردير، ولد ببني عدي سنة ١١٢٧ للهجرة وحفظ القرآن الكريم وجوده وشغف بطلب العلم، فورد القاهرة، وأكب على حلقات العلماء يأخذ كل ما عندهم من حديث وفقه وتفسير وعلم كلام ولغة ونحو وبلاغة. وشغف بدروس الشيخ الحفني شيخ الجامع الأزهر حينذاك، وكان قد انتظم في سلك الخلوتية- كما مر بنا- عن طريق الشيخ الخلوتي الكبير مصطفي بن كمال الدين البكري، فأخذ الدردير عنه الطريقة فيمن أخذوها عنه من

(١١٥٨) أنظر في الدردير تاريخ الجبرتي ٢/ ١٤٧.

obeikandl.com

العلماء والأجلاء وكان زاهدا عفيفا تقيا ورعا سليم الباطن مهذبا كريم الخلق، فقربه منه الشيخ الحفني وشيوخه بعامة. وسرعان ما أذنوا له بالإفتاء في حضرتهم، وأجازوا له التدريس، فكان يدرس للطلاب المذهب المالكي، وله فيه شرح "مختصر خليل" واقتصر فيه على الراجح من أقوال أئمة المذهب المالكي. ولما توفي شيخ المالكية: الشيخ الصعيدي شغل مكانه في المشيخة والإفتاء، وعين ناظرا على وقف الصعايدة وشيخا فلطائفته الخلوتية الصوفية.

وعدد الجبرتي في تاريخه مؤلفات الدردير في الفقه المالكي وفي علم التوحيد وفي متشابهات القرآن وفي علوم البلاغة. وذكر له بجانب ذلك مؤلفات في التصوف منها تحفة الإخوان في آداب أهل العرفان، وشرح على ورد الشيخ كريم الدين الخلوتي، وشرح على صلوات السيد أحمد البدوي وهي صلوات نبوية. ومازال الدردير يتولى مشيخة المالكية بالجامع الأزهر ومشيخة الطائفة بزاويته التي بناها بحي الكعكيين. وله ورد أو حزب مشهور باسم المسبعات(١١٥٩) والصلوات، والمسبعات أدعية وابتهالات عشر، وتليها صلوات عطرة على الرسول صلى الله عليه وسلم، وله معها منظومة لأسماء الله الحسنى، تشتمل في نهايتها على صلوات وتسليمات على الرسول صلى الله عليه وسلم وأدعية له ولشيوخه في الطريقة الخلوتية، ومما يقول في مسبعاته داعيا ربه متبتلا إليه.

(١١٥٩) أنظر في هذه المسبعات والصلوات مجموع الأوراد الكبير (طبع مكتبة النصر) ص ١٣.

obeikandl.com

"اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك ومن الذل إلا لك ومن الخوف إلا منك، وأعوذ بك أن أقول زورا، أو أغشى فجورا، أو أكون بك مغرورا. وأعوذ بك من شماتة الأعداء، وعضال الداء، وخيبة الرجاء، وزوال النعمة، وفجاءة النقمة.

اللهم إني أعوذ بك من شر الخلق وهم الرزق، وسوء الخلق.

اللهم إني أعوذ بك من الزيغ والجزع، وأعوذ بك من الطمع في غير مطمع".

ويظل يستعيذ من الهم والحزن ومن شر ما خلق الله ومن أن يظلم أو يظلم أو يبغي على إنسان أو يبغى عليه ذو سلطان أو يطغى أو يطغى عليه. ويستعيذ من الشرك الظاهرة والخفي، ويتوسل إلى الله أن يكون دائما في حرز منيع من جميع خلقه، وأن يظل معافى في بدنه ودينه ودنياه.

وننتقل معه إلى الصلوات على الرسول، وتتضح فيها نظرية الحقيقة المحمدية التي مر بنا حديث عنها عند البوصيري، إذ يقول:

"اللهم اجعل أفضل صلواتك أبدا، وأنمى بركاتك سرمدا، وأزكى تحياتك فضلا وعددا، على أشرف الخلائق الإنسانية، ومجمع الحقائق الإيمانية. . شاهد أسرار الأزل، وترجمان لسان القدم. . وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي، روح جسد الكونين، وعين حياة الدارين.

اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق، ونزلت علوم آدم فأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة.

obeikandi.com

اللهم صل على الذات المحمدية، اللطيفة الأحدية، شمس سماء الأسرار، ومظهر الأنوار، ومركز مدار الجلال، وقطب فلك الجمال".

ونظرية الحقيقة المحمدية وما يطوى فيها من قدم الوجود المحمدي وأن وجود الكائنات مستعار منه واضحة في قول الدردير عن الرسول عليه السلام إنه ترجمان لسان القدم، وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي وروح جسد الكونين وأن الأنوار منه انشقت، فنوره هو المرئي في كل نور، ووجوده هو المشاهد في كل وجود. وكل ذلك يعني أزلية النور المحمدي أو قل أزلية الحقيقة المحمدية. ويوزع الدردير صلواته على الحروف الهجائية فلكل حرف سجعاته الخاصة، ومع الصلوات أدعية وابتهالات شتى من مثل قوله في الصلوات على حرف الدال:

"اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد واسلك بنا طريق الرشاد.

وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد واخلع علينا خلع الرضوان والوداد،

وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وتوجنا بتاج القبول بين العباد.

وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وارأف بنا رأفة الحبيب بحبيبه يوم التناد(١١٦٠)"

وتتوالى مثل هذه الأدعية مع الصلوات على الرسول صلى الله عليه وسلم وكأن الدردير يستمد من معين لا ينضب، وهو معين يسيل دائما سلاسة وعذوبة.

(١١٦٠) يوم التناد: يوم القيامة.

obeikandl.com

٥

كتب النوادر والسير والقصص الشعبية

(أ) كتب النوادر

تطلق كلمة النوادر إطلاقين، فهي تارة يراد بها الأقاصيص القصيرة التي تروح عن النفس أو التي يقصد بها إلى غرض خلقي نبيل، وتارة يراد بها أقاصيص فكهة قصيرة سخرية بحاكم أو معلم أو قاض أو بخيل. وكتب الأدب العربي تمتلئ بهذين النوعين من كتب النوادر، وهي كثيرة في مصر على مدار هذا العصر، ونكتفي بالحديث عن كتاب من المجموعة الأولى وكتابين من المجموعة الثانية.

كتاب المكافأة

مؤلف هذا الكتاب أحمد(١١٦١) بن يوسف المعروف باسم ابن الداية كانت أم أبيه يوسف بن إبراهيم داية لإبراهيم بن المهدي عم المأمون فنسب إليها. وظل يوسف في خدمته حتى توفى، ويبدو أنه كان مثقفا ثقافة متنوعة، مما جعل بعض ولاة العباسيين بمصر يستكتبه في ديوانها، واستقر مقامه بها هو وأسرته منذ سنة ٢٢٦ للهجرة. ويروى أنه صنف كتابا في أخبار أصحاب الطب، مما يؤكد أنه كان على صلة بعلوم الأوائل.

(١١٦١) أنظر في أحمد بن يوسف معجم الأدباء ٥/ ١٥٤ وتاريخ الحكماء للقفطي (مختصر الزوزني) ص ٧٨ واستوعب ابن سعيد في كتابه المغرب (قسم الفسطاط) كتابه عن سيرة أحمد بن طولون وابنه خماوريه. وكتابه المكافأة طبع مرارا.

obeikandi.com

ورُزق بابنه أحمد، وعنى بتثقيفه، مما أهله ليعمل كاتبا في دواوين الدولة الطولونية وليكتب سيرة أحمد بن طولون وابنه خمارويه وليس ذلك فحسب، فإنه وصله بعلوم الأوائل وبرع فيها وخاصة في الطب والرياضة والفلك وأيضا في الفلسفة. ويسوق له مترجموه كتابا في أخبار الأطباء وكتابا في النسبة والتناسب وكتابا في الأقواس المتماثلة، كما يسوقون له كتاب مختصر المنطق وكتاب السياسة لأفلاطون، وشرح كتاب الثمرة في الفلك لبطليموس. وقد توفي سنة ٣٤٠.

وتؤكد سيرة أحمد بن يوسف وسيرة أبيه أنهما كانا من أصحاب المروءات، وكانا يحسنان تثمير أموالهما في التجارة والزراعة، فأغدقا كثيرا على كل من رأياه تلم به كارثة أو ينزل به خطب من الخطوب. ولعل هذا الجانب في أحمد بن يوسف هو الذي جعله يؤلف كتابه "المكافأة". وهو في ثلاثة أقسام: قسم يضم إحدى وثلاثين نادرة أو حكاية قصيرة تدور حول مكافأة الجميل بالجميل ليرغب في عون المنكوب ومد يد المساعدة إليه، وحتى يكافئ الإنسان جميلا بجميل يماثله. ويعرض ذلك في النوادر عرضا جذابا بما يذكر من نوادر وقعت في أيامه وغير أيامه في مصر وغير مصر. ويتلو هذا القسم بقسم ثان يضم إحدى وعشرين نادرة أو حكاية قصيرة تصور كيف أن مكافأة القبيح تتبع قبيحا مثله، حتى يرتدع أهل الشر والسوء، ويكفوا عن سوئهم وشرهم لما يجران من أوخم العواقب. والقسم الثالث يضم تسع عشرة نادرة أو حكاية قصيرة وهي تصور حسن العقبى وكيف أن أناسا تورطوا في شر أو بلاء ونجوا منه. والكتاب بذلك دعوة حارة إلى عمل الخير بضرب أمثلة بديعة من النوادر والحكايات القصيرة. وهو مكتوب بفصحى جزلة ناصعة، إذ كان أحمد بن يوسف من كتاب زمنه البارعين. ويبدو

obeikandl.com

أنه قصد به إلى أن يشيع في الشعب، ولعل ذلك هو السبب في أننا نراه يقترب من لغته اليومية، إذ تدور فيه صيغ وتعابير لا تزال تجرى على ألسنتنا في الحياة اليومية من مثل:

كاد والله يموت فرحا- كثر الله في الناس مثله- حصلني على الباب أي لحقني- اعتذرت إليه من تقصيري في حقه- امرأة تطلق (أي أصابها المخاض)- ست (أي سيدة)- امرأة مقربة (أي قربت ولادتها). واستخدم قليلا مد تاء المخاطبة بحيث تتولد من الكسرة ياء فقال على لسان تاجر يكافئ سيدة على جميل: "هذا جزاء ما قدمتيه" كما نقول في عاميتا المصرية. واستخدم أيضا مطابقتنا في العامية بين الفعل والفاعل في الجمع فقال: "اشتهوا علي صبياني حلواء في العيد" والفصيح أن يقال "اشتهى علي صبياني". ويكثر من الاستفهام في الجمل دون ذكر أداة من أدوات الاستفهام كما نصنع أيضا في عاميتنا. وكثير من نوادر الكتاب واسع الدلالة التاريخية على زمن المؤلف وجوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بجانب دلالته القيمة على الأسلوب الأدبي في مصر حينئذ، وما كان يستخدم فيه من عبارات لاتزال حية إلى اليوم.

أخبار سيبويه المصري

ألف هذا الكتاب ابن[١١٦٢] زولاق الحسن بن إبراهيم المولود سنة ٣٠٦ والمتوفى سنة ٣٨٧ وقد جمع فيه نوادر رفيق له في الدراسة هو محمد[١١٦٣] بن موسى الكندي

(١١٦٢) أنظر في ابن زولاق معجم الأدباء ٧/ ٢٢٥ وابن خلكان ٢/ ٩١ ولسان الميزان لابن حجر ٢/ ١٩١ حيث يقول إنه كان يتولى المظالم للفاطميين ويظهر التشييع لهم.

(١١٦٣) راجع في سيبويه المصري معجم الأدباء ١٩/ ٦١.

obeikandl.com

المعروف باسم سيبويه المصري، ولم يكن عالما بالنحو فحسب بل كان عالما أيضا بالقراءات والفقه وعلوم الحديث ورواية الشعر، وكان عفيفا متنسكا اجتمعت فيه أدوات الأدباء والفقهاء والعباد، وبلغ في ذلك- كما يقول ياقوت- مبلغا جالس به حكام مصر، وكان ينقدهم نقدا يحمله كثيرا من السموم، ولم يكن يخفيه بل كان يعلنه في الأسواق وعلى رءوس الأشهاد، وكان الناس يتبعونه يكتبون نقده، ويروونه في المجالس العامة والمساجد والمتنزهات. ومازال هذا دأبه حتى توفي سنة ٣٥٨ مع نهاية الدولة الإخشيدية. وكان ابن زولاق مؤرخا كبيرا، ويقول ابن خلكان له كتاب في خطط مصر استقصى فيه، وله كتاب أخبار قضاة مصر جعله ذيلا على كتاب الكندي: أخبار قضاة مصر، وكان قد انتهى فيه إلى سنة ٢٤٦، فكمله ابن زولاق إلى سنة ٣٨٦، وله كتاب في سيرة الإخشيد اعتمد عليه ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتابه "المغرب".

ويسوق ابن زولاق في كتابه أخبار سيبويه مشاهد مختلفة لنقد سيبويه للحكام وللناس في عصره ممزوجا بشيء من التباله، ولم يكن ينقد أو يذم بلفظ قبيح، إنما كان يزجر وينهر بألفاظ غير قبيحة ولكنها تخز وخز الإبر، من ذلك أن الإخشيد كان يركب في موكب لصلاة الجمعة، فتصدى له يوما في أثناء ركوبه إلى الصلاة والناس محتشدون لرؤيته فقال بأعلى صوته: "ما هذه الأشباح الواقفة، والتماثيل العاكفة؟ سلطت عليهم قاصفة (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) قلوبهم (يومئذ واجفة)" فقال له رجل: "إنه الإخشيد يمر إلى الصلاة، فلم يفزع ولم يسكت بل قال توا: "هذا الأصلع

obeikandi.com

البطين"، المسمن البدين، قطع الله منه الوتين،(١١٦٤) ولا سلك به ذات اليمين، أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان، ولا حاجب ولا حاجبان، ولا تابع ولا تابعان؟ لا قبل الله له صلاة ولا قبل له زكاة، وعمر بجثته الفلاة".

وكان سيبويه المصري يستخدم السجع دائما في نقده أو قل في هجائه للحكام، ويوشيه بآية أو آيات قرآنية على نحو ما مر بنا آنفا أو بحديث نبوي. وكان يسوق مثل هذا الهجاء في أُناء وعظه للناس، إذ كان واعظا كبيرا. والناس يضحكون لتنفيسه عنهم ما كان يقع عليهم من ظلم الحكام لزمنه فيضحكون ويغرقون في الضحك. وكان بعض الحكام والوزراء يقربه ويجالسه أملا في أن لا يكويهم أمام الشعب بسياطه. ورأى أبا الفضل جعفر بن الفرات يسير في موكب كبير وكان قد تولى الوزارة، فقال: "ما بال أبى الفضل قد جمع كتابه، ولفق أصحابه، وحشد بين يديه حجابه، وشمر أنفه، وساق العسكر خلفه؟ أبلغه أن الإسلام طرق فخرج ينصره، أو أن ركن الكعبة سرق فخرج لهذا الأمر ينكره؟. ومع أن سيبويه كان يصوغ نوادره في هذه الفصحى المسجوعة نجد عنده بعض ظواهر من عاميتنا أو لغتنا المتداولة، من ذلك أنه كان يعيد الضمير لغير العاقل مع الفعل مجموعا في مثل: "فجاءت فراريج فلقطوا ما بين يديه" والفصيح فلقطت ما بين يديه. وكأن أسلافنا سبقونا إلى ذلك في لغتهم اليومية منذ مئات السنين.

(١١٦٤) الوتين: الشريان الرئيس الخارج من القلب.

obeikandl.com

كتاب الفاشوش في حكم قراقوش

ألف هذا الكتاب ابن مماتي الذي مرت ترجمته، وقد قص فيه طائفة من النوادر نسبها إلى قراقوش[١١٦٥] التركي أحد قواد صلاح الدين الأيوبي. وكان قد أنابه عنه مدة بالديار المصرية وفوض أمورها إليه، وهو الذي بنى السور الذي كان يحيط بالقاهرة، وبنى قلعة الجبل والقناطر في طريق الأهرام. وكانت فيه شدة وقسوة، كما كانت فيه غفلة وغير قليل من الحمق، فانتهز ابن مماتي ذلك فيه، وألصق به طائفة من النوادر في أحكامه جمعها في كتابه "الفاشوش[١١٦٦] في حكم قراقوش". ويدافع عنه ابن خلكان قائلا: في الكتاب أشياء يبعد وقوع مثلها منه، والظاهر أنها موضوعة فإن صلاح الدين كان معتمدا في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه".

ويبدو أن قراقوش قسا في تسخير المصريين في بناء السور والقلعة والقناطر المذكورة، فانتقم لهم ابن مماتي منه بهذا الكتاب الذي وضعت عليه. وهو يستهله بقوله: "إنني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش حزمه فاشوش، قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدي بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم والشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدي لمن صدق، ولا يقدر أحد عظم منزلته أن يرد كلمه ويشتط اشتطاط الشيطان، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين". ويأخذ ابن مماتي في سرد أحكام قراقوش المضحكة. من ذلك أن سيدة سوداء شكت لقراقوش جارية مملوكة لها، فعجب أن تكون امرأة بيضاء

(١١٦٥) أنظر فغي قراقوش ابن خلكان ٤/ ٩١ والنجوم الزاهرة ٦/ ١٧٦ وعبر الذهبي ٤/ ٢٩٨.

(١١٦٦) راجع في تحليل هذا الكتاب مقالا لنا في مجلة الكاتب المصري عدد نوفمبر سنة ١٩٤٦ ص ٣٦١.

obeikandi.com

خادمة لسيدة سوداء، فرد شكواها مؤمنا بأنها ليست السيدة بل هي الجارية، والجارية البيضاء هي السيدة، وهم بحبسها لولا أن شفعت فيها جاريتها فعفا عنها. ومن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة جاءاه يشكوان إليه رجلا أجرد كان يعبث بلحيتهما، ونظر قراقوش إلى الرجل فلم يجد له لحية حينئذ صرخ في الرجلين قائلا: إنهما اللذان أعتديا عليه بنتف لحيته، وصاح في غلمانه أن يزجوا بالرجلين في غياهب السجون حتى ينبت الشعر في ذقن الرجل وتطول لحيته. ومن ذلك أن الشرطة جاءته بحداد له قتل نفسا محرمة بغير حق، فأمر بشنقه فقيل له إنه حدادك الذي ينعل لك الفرس، فنظر أمام بابه فرأى رجلا قفاصا فقال: "اشنقوا القفاص وسيبوا (اتركوا) الحداد. وعلى هذا النحو يصور ابن مماتي قراقوش متصرفا في القضايا بحمق ما بعده حمق، ونضحك للتضاد بين المقدمات والنتائج، تباينا يضيع فيه المنطق، فسيدة تدخل شاكية لخادمتها، فتخرج خادمة والخادمة تصبح سيدتها، ورجل يدخل بدون لحية، فيخرج وله لحية نتفت، أو قل يدخل جانيا ويخرج مجنيا عليه، وقاتل يبرأ وبريء يقتل.

وما نظن أحدا في مصر قديما بلغ من التشهير بحاكم ما بلغه ابن مماتي من التشهير بقراقوش وأحكامه بين الناس عن طريق هذه النوادر الشعبية التي اختار لها لغة المصريين الدارجة لزمنه قاصدا بذلك أن تشيع بين العامة، وهي فعلا شاعت أكبر شيوع وأوسعه في مدن مصر وريفها، فكلما اشتكوا من حاكم وظلمه قالوا: "حكم ولا حكم قراقوش".

وأضافت الحقب التالية إلى شخصية قراقوش نواد مضحكة بجانب ما في كتاب قراقوش من نوادر كثيرة، مما جعل السيوطي يؤلف كتابا يستعير له اسم كتاب ابن

مماتي، مضيفا فيه إلى قراقوش نـوادر جديـدة. وكـأنما أصـبحت شخـصية قراقـوش في الأزمنة التالية شخصية خيالية لكل حاكم أحمق يخلط حمقه بظلمه. وأكبر الظن أن كلمة قراقوز التي تطلق في تركيا والشام على خيال الظل وتصويره للحكام الظـالمين الحمقـى ترجع في اشتقاقها إلى اسم قراقوش لا إلى ما يقال من أنها مؤلفة من لفظتين تركيتين هما "قره" أي أسود و"قوز" أي عين وبذلك يكون معناها العـين الـسوداء لأن مـن كـانوا يعرضون هذه اللعبة بتركيا كانوا من الغجر الجوالين، غير أنا نرجح الرأي الأول. وقـد دخلت الكلمة ثانية إلى مصر باسم "أراجوز.

هز(١١٦٧) القحوف

نمضي إلى زمن العثمانيين بمصر فنجد عالما واعظا يسمى يوسـف الـشربيني يـصف حال سكان الريف المصري وما نزل بهم لعهد العثمانيين من البـؤس والفقـر والـضنك والجهل في قصيدة يسميها "قصيدة أبي شادوف" وشرح لها يسميه "هز القحوف" وقد ملأ الشرح بنوادر فكاهية عما كان يعانيه أهل الريف حينئذ من الأمية والجهـل وبطـش الكاشف أو حاكم الإقليم وظلمه وما كان يصليهم من السخرة وما كانوا يرزحون فيه من المسغبة فإن طعموا لم يطعموا إلا العدس وطعاما يتخذ مـن الفـول يـسمى البيـسار والمش العتيق، ومعاذ الله أن يطعموا شيئا وراء ذلك من لحم وغير لحم. ويقول عـن أبي شادوف الثري الريفي صاحب القصيدة إنه لم يكن يملك سوى حمـار أعـرج وعنـزتين

(١١٦٧) أنظر في تحليل كتاب هز القحوف مقالا لنا في مجلـة الكاتـب المـصري عـدد ينـاير سـنة ١٩٤٧ ص ٧٢٩.

obeikandl.com

وحصة في ثور الساقية ونصف بقرة وعشر دجاجات وديك وأربع كيلات من نخال الشعير. ويفيض الكتاب بنوادر لاذعة تحمل في أطوائها كثيرا من الطعنات لحكم العثمانيين الغاشم وسوآته.

(ب) كتب السير والقصص الشعبية

كثرت في مصر منذ أيام الفاطميين كتب قصص الأنبياء مجموعة أو مفردة: قصة لموسى وقصة ليوسف عليهما السلام أو لغيرهما من الأنبياء وخاصة إبراهيم الخليل. ومر بنا في الحديث عن كتابة التاريخ في الفصل الثاني بيان لبعض ما كتب في السيرة النبوية، ومنذ الحروب الصليبية كثرت الكتابة في ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم وما اقترن به من خوارق وحياته وما رافقها من معجزات، وكان ذلك يكتب نثرا وتتخلله أشعار باسم "المولد النبوي". وعادة كان هذا المولد يلقى في الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول، وكانت تلقى معه "قصة الإسراء والمعراج" الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى والعروج به إلى السماء. وقد أصبح من الثابت أن دانتي تأثر تأثرا واضحا بهذه القصةالأخيرة في الكوميديا الإلهية(١١٦٨) وبجانب هذا القصص الديني الذي لا يزال كثير منه مخطوطا ومحفوظا برفوف دار الكتب المصرية قصص كثير محفوظ بتلك الرفوف عن العشاق العذريين. ونعرض الآن طائفة من السير والقصص الشعبية التي ألفت في مصر- أو أخذت بها شكلها النهائي- وهي سيرة عنترة والسيرة الهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة.

(١١٦٨) راجع تاريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص ٥٥١ ـ ٥٦٤.

سيرة[١١٦٩] عنترة

أساس هذه السيرة أخبار عنترة في الجاهلية وما جاء فيها من أنه كان ابن أمة ومن أنباء فروسيته وحبه لعبلة ابنة عمه. ويتحول عنترة في السيرة بطلا عظيما لملحمة عربية تمتد فيها بطولاته من العصر الجاهلي حتى نهاية القرون الخمسة الأولى للإسلام. ويقال- لرواية في أول كتاب منية النفس في أشعار عنترة عبس- إن أول كتابة لهذه السيرة كانت في أيام العزيز الخليفة الفاطمي (٣٦٥- ٣٨٦ هـ) إذ حدثت ريبة في قصره جعلت أهل القاهرة يلهجون بالحديث عنها، فأشار على شخص يسمى يوسف بن إسماعيل أن يشغل الناس بسيرة تلهيهم عن الكلام فيها، فألف لهم سيرة عنترة وشغفوا بها. غير أن هذه الرواية- إن صحت- إنما تشير إلى أول ما كان من وضع السيرة. إذ أخذت الأجيال تزيد فيها حتى أوائل القرن السادس الهجري، وحتى أصبحت في اثنين وثلاثين جزءا، وهي منشورة في أربع مجلدات. ولا تمتد فيها سيرة عنترة في الزمان فحسب، بل تمتد أيضا في المكان، إذ تشمل ساحات بطولات عنترة القديم: الهند وفارس ومصر والشام وجنوب أوروبا وشمال إفريقيا والحبشة والسودان. وهي موزعة بين نثر وأشعار، مما أتاح لرواتها من قديم أن ينشدوها الناس على الربابة في حفلات كانت تعقد لها. وقد كتبت بلغة تدنو دنوا شديدا من اللغة اليومية، وصيغة صياغة قصصية جذابة بحيث يقتطع الكلام في كل جزء من أجزائها عند حادث مهم. وبذلك يشغف القارئ والسامع بمعرفة الجزء الذي يليه. وهكذا حتى نهايتها. وتتسع السيرة في عرض أخبار الجاهلية حتى نصل إلى زمن زهير ملك بني عباس قبيلة البطل،

(١١٦٩) أنظر في سيرة عنترة وترجماتها وما وضع فيها المستشرقون من بحوث دائرة المعارف الإسلامية.

obeikandi.com

وتعرض السيرة مولد عنترة وبطولته في صباه وشبابه وحبه لابنة عمه وحمايته لقبيلته ضد القبائل المنافسة لها وما فرضه عليه عمه لقاء زواجه بعبلة من أعمال شديدة الخطر جشمته الرحلة إلى العراق وملازمة ملوك الحيرة ووفوده على إيران وتعرفه بملوكها وفي مقدمته كسرى وما كان من طلبهم منه العون في منازلة بطل إغريقي.

ويصبح عنترة حاكما للشام ويفد على القسطنطينية ويقود مع إمبراطورها حروبا ضد الفرنجة ويبلغ إسبانيا ويخترق شمال إفريقيا إلى مصر ويستعين به ملك روما ضد بوهمند ويقتله، وهو أحد أمراء الحروب الصليبية الأولى وكان نورمانديا إيطاليا، وكأن المؤلف الأخير للسيرة كان يعرف أصله وموطنه. ومعروف أن الحملة المذكورة نزلت آسية الصغرى سنة ٤٩٠ للهجرة ولذلك نقول إن ميادين السيرة وساحاتها البطولية تمتد حتى نهاية القرن الخامس الهجري، وليس بوهمند فقط الوحيد من أمراء الحملة الصليبية الذي يلقانا في السيرة، إذ يلقانا فيها أيضا زواج عنترة من أميرة إفرنجية وإنجابه منها الجوفران وربما كان تحريفا لجودفري صاحب بويون دوق اللورين الأدنى الذي استولى على بيت المقدس سنة ٤٩٢ ولم يلبث أن توفي وخلفه أخوه بلدوين. وبطولات عنترة في السيرة تتسع لا لتشمل ميادين الحروب الصليبية والبلاد الأوربية فحسب، بل أيضا لتشمل الهند والسودان وبلاد النجاشي، وعرف عنترة أنه جد أمه زبيبة. وكل من يقرأ السيرة يرى أن أجيال المؤلفين التي تداولتها كانت أجيالا بصيرة بتاريخ العرب في الجاهلية وما اتصل بها من قصة إبراهيم الخليل وتاريخ العرب في الإسلام وفتوحاتهم العظيمة وتاريخ الفرس وملوكهم وبلاطهم وآدابهم وتاريخ الحروب الصليبية وطقوس النصارى وشعائرهم وأعيادهم. والسيرة ملحمة رائعة

للبطولة العربية التي مثلها عنترة أروع تمثيل في أكثر من خمسمائة عام ومثل معها فضائلها النبيلة التي نقلها الصليبيون إلى ديارهم. وقد تخللت السيرة أحلام ورؤى وأساطير وخوارق عجيبة.

السيرة[١١٧٠] الهلالية

قوام هذه السيرة حروب مستمرة بين بني هلال ومن دخل معهم من قبائل زغبة وسليم ورياح وعدي وربيعة والأثبج إلى إقليمي طرابلس وشمالي إفريقيا ومن كان بهذه الأقاليم من الصنهاجيين وزناتة وغيرهم من القبائل المغربية المستوطنة. وكانت القبائل العربية المذكورة قد حاربت مصر لعهد المعز أول الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٠ تحت لواء الأعصم القرمطي. وكان قد استولى على دمشق والرملة ودخل مصر والتقى بالجيش الفاطمي في عين شمس بالقرب من القاهرة وكاد يكتب له النصر لولا خروج بعض قواده عليه وانضمام القبائل سالفة الذكر إلى الجيش المصري. وبذلك دارت عليه الدوائر فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين موطنه. وأسكن المعز تلك القبائل القيسية الصعيد، لعله يمكن الانتفاع بها في المستقبل. وحانت الفرصة لذلك في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) إذ خرج عليه المعز بن باديس الصنهاجي صاحب تونس والقيروان سنة ٤٤٣ وأعلن العودة إلى المذهب المالكي السني وتبعيته للخليفة العباسي القائم بأمر الله، وانفصل بذلك الجناح الغربي للدولة الفاطمية ولم تقم

(١١٧٠) أنظر في السيرة الهلالية الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع بولاق) ص ٦٢ وكذلك الجزء السابع ص ٤٣ وأواخر مقدمة ابن خلدون حيث روى بها أشعارا للهلالية والزناتية، وراجع دائرة المعارف الإسلامية وكتابا في السيرة الهلالية لعبد الحميد يونس.

obeikandl.com

للمذهب الشيعي الفاطمي قائمة في تلك الأنحاء منذ هذا التاريخ. واستشاط المستنصر غضبا، وأشار عليه وزيره اليازوري أن يسلط عليه القبائل القيسية النازلة بالصعيد منذ أيام جده المعز، فاتصل بشيوخهم ووعدهم أن تكون ديار طرابلس وتونس وكل ما تحت يد المعز إقطاعا لهم وأيضا كل ما يمتلكونه من بلاد المغرب وسرعات ما لبته جموعهم، وخرجت إلى المغرب: إلى تونس وإفريقية، واستولت في سنة ٤٤٣ على برقة بزعامة يحيي الرياحي وتملك بنوزغبة في سنة ٤٤٦ طرابلس، واتجهت هلال ورياح والأثبج وعدي إلى إفريقيا وأضرموها نارا بقيادة زعيمهم مؤسس بن يحيي الرياحي وحاول المعز بن باديس أن يقربه منه مجزلا له العطايا ولم يغن ذلك عنه شيئا. ونازل تلك الجموع ودحرته وأنزلت به هزائم متوالية، مما أضطره أن يخلي لهم القيروان وأن يكتفي بالمهدية وبلدان صغيرة حولها. واكتفي بها من بعده ابنه تميم الذي حكم بعده إلى نهاية القرن الخامس. وأخذت تتضعضع الإمارة بينما تحول إقليم تونس والجزائر إلى إقطاعيات صغيرة يحكمها هلاليون أو زناتيون إلى أن أعادت دولة الموحدين إلى شطر كبير من المغرب وحدته.

ويبدو أنه حين ارتضت هذه القبائل القيسية هجرتها إلى المغرب أرسلت إلى عشائرها في الجزيرة العربية أن تقدم عليها لتشاركها في هذه الهجرة الكبيرة وأن عشائر فعلا لبت دعوتها، يدل على ذلك أننا نجد القاص للسيرة أو قصاصها استغلوا فيها قصة فتاة جميلة من بني هلال هي الجازية بنت الحسن بن سرحان عشقها فتى من عشيرتها وأراد الزواج منها وتصادف أن أمير مكة شكر بن أبي الفتوح (٤٣٠- ٤٥٣ هـ) رآها وأعجب بها، وطلب يدها من أبيها فآثره على عشيقها، وزوجها منه. ثم حدث أن أغضب شكر عشيرتها، ورأوا الانتقام منه فاحتالوا عليه لأخذ الجازية وحرمانه منها، فادعوا أنهم يريدونها لزيارة أبويها في نجد، حتى

إذا قدمت معهم مضوا مع أبيها في الرحلة إلى إفريقيا، وهناك زوجوها من ابن عمها ولكن قلبها ظل معلقا بزوجها الأول حتى ماتت من شدة هيامها وحبها له. وهي قصة صحيحة في أصلها المتصل بشكر أمير مكة وزوجته الجازية، مما يدل على أن عشائر هلالية من الجزيرة قدمت على بني هلال بالصعيد أو بعد تركهم له مباشرة وواصلت بدورها الهجرة إلى المغرب.

والأساس في السيرة تاريخي صحيح وهو هجرة بني هلال ومن معهم من القبائل القيسية إلى المغرب واستيلاؤهم على بعض مدنه، غير أن الأحداث بعد ذلك تمضي وكأنها أضغاث أحلام لتلك الهجرة الكبيرة إذ سمى القصاص بطلها أبا زيد الهلالي وسموا خصمه في قبيلة زناتة: الزناتي خليفة. وبذلك غابت عن السيرة قبيلة صنهاجة وأميرها المعز بن باديس الصنهاجي، كما غاب زعيم القبائل يحيي الرياحي وابنه مؤنس. وقد يرجع ذلك إلى أن القاص أو القصاص الذين وضعوها كانوا بمصر بعيدين عن ساحة الأحداث أو ساحاتها فبدت وقائعها وكأنها أخلاط أحلام، بما في ذلك اسم بطليها العربيين الخياليين: أبي زيد الهلالي ودياب بن غانم الزغبي. وأغلب الظن أن ذلك يرجع إلى أنها تأخرت في وضعها طويلا عن زمن أحداثها ولذلك كنا نظن أنها ألفت في القرن السابع الهجري أو بعده في القرن الثامن وهي مكتوبة باللغة اليومية: شعرا ونثرا، وقد تعلق بها الشعب المصري في ريفه وحضره، وعادة كان يلقيها على الناس منشد على ربابة في المقاهي والحفلات، يسمونه الشاعر. وللسيرة ثلاث مراحل: مرحلة الريادة إلى بلاد المغرب، وفيها يرود الطريق بطلها الخيالي أبو زيد الهلالي وأبناء أخته يحيي ومرعى ويونس وفي تونس يُلقى بهم في غياهب السجون، ويستطيع أبو زيد الفرار من السجن ويستنفر القبيلة لتخليص أبنائها الثلاثة. والمرحلة الثانية تسمى

التغريبة وفيها تهاجر القبيلة إلى تونس وتمكنها سعدى ابنة ملكها الزناتي خليفة من دخولها وتفك القبيلة الأسرى الثلاثة. ويأخذ الحسن بن سرحان القيروان ودياب تونس وأبو زيد الأندلس ويستولون على قلاع كثيرة حتى يصلوا إلى أقصى المغرب. والمرحلة الثالثة خاصة بأبناء الأبطال ويسمون الأيتام، وفيها يجمع زيدان بن أبي زيد الهلالي العرب من الشام والحجاز ويلتقي بهم في صعيد مصر ويرحل معهم إلى تونس ويشدد الحصار عليهم وعلى أميرها دياب بن غانم الزغبي ويوافيه الهلالية من الأندلس ويفتحون جميعا المدينة ويقتلون دياب بن غانم. ويتنازل الهلالية عنها لابن الزناتي خليفة ويتأمر على الهلالية ابن الحسن بن سرحان، ويعود زيدان الهلالي إلى صعيد مصر، كما يعود الهلالية الذين قدموا من الأندلس إليها. وبذلك تنتهي السيرة، وهي تمتلئ بانطباعات مصرية كثيرة.

سيرة الظاهر بيبرس[١١٧١]

كان طبيعيا أن يضع المصريون سيرة شعبية طويلة للظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التي لم تقم بعدها للتتار قائمة. بل لقد ولوا الأدبار إلى الشمال في الشام وبيبرس يلاحقهم حتى اتجهوا شرقا إلى شمال العراق. وبمجرد استيلائه على الحكم في مصر سنة ٦٥٨ أخذ يثبت حكمه باستقدامه أحد سلالة العباسيين، وكان من أبناء الخليفة العباسي الظاهر ونجا من مذبحة المغول ببغداد ونزل دمشق، فاستدعاه بيبرس إلى القاهرة، وبايعه بالخلافة، وبذلك أصبح بيبرس حاميا لها. وتبعه في حمايته سلاطين

(١١٧١) أنظر هذه السيرة تحت كلمة بيبرس في دائرة المعارف الإسلامية.

obeikandl.com

المماليك إلى أن أخذ السلطان سليم العثماني فاتح مصر الخليفة العباسي معه إلى القسطنطينية. وكان بيبرس سيوسا حازما وقائدا ماهرا فاتسع بدولته في الجنوب ببلاد النوبة ودانت له القبائل في ليبيا، وهزم التتار على الفرات في غير معركة وأوقع بالأرمن خسائر فادحة، وكال للصليبيين ضربات قاصمة، واستولى على كثير من قلاعهم وحصونهم، ودان له الحشاشون الفدائيون داخل الشام بالطاعة. وتعد أيامه أزهى أيام مصر زمن المماليك وأعظمها ازدهارا، لذلك كان من الطبيعي أن تؤلف عنه سيرة شعبية، وهو فيها بطل عربي يسمى "محمود بيبرس" وقد مثلوا فيه الفروسية العربية ومظاهرها الباسلة وخاصة في حروبه مع الصليبيين.

ولغة السيرة عامية والنثر يغلب فيها بالقياس إلى الشعر، ولذلك لم تكن تنشد، بل كانت تروى، وتنسب إلى أربعة رواة أصليين هم ابن الديناري وكاتم السر أي كاتب السر وناظر الجيش والصاحب والدويداري (تحريف للدوادار) وهو الأمين الخاص للسلطان. وتتداخل في السيرة قصص طويلة كقصة إبراهيم الحوراني ورحلته إلى روما. وتتحدث السيرة عن نشأة محمود بيبرس وعلاقته بالسلطان الأيوبي نجم الدين الملقب بالملك الصالح وما عهد إليه من الأعمال، وصلته بشجرة الدر وأيبك وقطز. وتصف جلوسه على عرش مصر وامتداد حروبه وساحات بطولته إلى أوروبا، وتعرض أعماله وإخضاعه الفدائيين الحشاشين المشهورين بكثرة اغتيالاتهم منذ زعيمهم الحسن الصباح، وتذكر من زعمائهم جمال الدين شيحه، ولعله صاحب القبر المعروف باسمه في دمياط. ومن أبطال السيرة معروف زوج مريم الزنارية النصرانية وقد أنجبت منه ابنا حاربه قبل أن يعرفه. ويبدو أن هذه السيرة لم تكتب في عهد قريب من الظاهر، لأن

الأحداث التاريخية وأسماء الأبطال سوى الظاهر يشوبها كثير من الخيال وتحفل بأساطير وأعمال خارقة للعادة، ونرجح كتابتها بعد القرن السابع وقد تكون كتابتها تأخرت إلى القرن التاسع الهجري.

سيرة[١١٧٢] سيف بن ذي يزن

قصة شعبية مصرية طويلة، تعرض بطولة سيف بن ذي يزن سليل ملوك حمير، وهي تصور الصراع بين العرب والأحباش في أواخر العصر الجاهلي. وكيف طردهم سيف بن ذي يزن من الجزيرة العربية بعد أن كانوا قد سيطروا على اليمن. وهي في ١٧ جزءا وتحمل كثيرا من الأساطير والعجائب ومغامرات سيف بن ذي يزن في سبيل استقلال بلاده، وبذلك تأخذ السيرة مكانة في التاريخ القومي العربي، إذ موضوعها حرب بين العرب وأمة الأحباش الأجنبية. وتجعل السيرة سيف بن ذي يزن حنيفا يقتحم معاقل الشرك وهو يقول اثما لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله، ويغلب أن تكون قد ألفت في مصر في القرن الثامن أو التاسع للهجرة.

ألف[١١٧٣] ليلة وليلة

ذكر ابن النديم في كتابه "الفهرست": من كتب الأسمار والخرافات التي نُقلت عن الفرس كتاب هزار أفسانه أي ألف خرافة. والمعروف أنه يرجع إلى أصل هندي. ويغلب أن يكون قد

(١١٧٢) راجع في هذه السيرة وما بها من تأثيرات مصرية مقال ياريه عنها في دائرة المعارف الإسلامية.

(١١٧٣) أنظر في ألف ليلة وليلة بحثا لأحمد حسن الزيات في كتابه "أصول الأدب" ودائرة المعارف الإسلامية وما ذكرت من مراجع.

نُقل إلى العربية في القرن الثالث الهجري، ولا يعرف بالضبط متى أضيفت إلى اسمه وهو ألف ليلة وليلة كلمة ليلة الثانية، ويغلب أن يكون قد أريد بها أن يحوي ليالي كثيرة تزيد عن الألف. وأخذت تضاف إلى الكتاب في بغداد أقاصيص كثيرة، وبالمثل أضافت إليه مصر بدورها أقاصيص متنوعة. ويمكن أن تميز الأقاصيص الهندية الأصل فيه بتداخلها كحكاية الصعاليك الثلاثة.

وتميز الحكايات الفارسية فيه بحكايات الظرفاء وبعض الحكايات المفردة. وبه حكايات عربية خالصة كحكاية حاتم الطائي وإبراهيم المهدي. ويشيع في الحكايات البغدادية ذكر هارون الرشيد وتنكره وتدينه البالغ وحبه لمباهج الحياة وللرعية وحب الرعية له ووصف بلاطه وقصوره. وتكثر القصص المصرية في الكتاب وحكايات الشطار بها وما تطبع به من المروءة والفكاهة كما في حكايات علاء الدين أبي الشامات وأحمد الدنف ودليلة المحتالة وزينب النصابة ومعروف الإسكافي وعلى الزيبق، ويشيع السحر في هذه الحكايات كما تشيع عادات المصريين، وتصور حياتهم في الأسواق والحمامات وما يغلب عليهم من الإيمان بالطلاسم والرقي والتعاويذ. ونلتقي بجوانب من هذا كله في حكايات مصرية أخرى كحكاية أبي قير وحكاية أبي صير ومثلها حكاية المصباح العجيب وأيضا حكاية مريم الزنارية وحكاية الصعيدي وزوجته الإفرنجية وهما تعكسان الصراع بين المسلمين وحملة الصليب. وأهم من كل ما سبق لمصر في الكتاب أنها التي صاغته بلغتها العامية وانتشر بها في العالم العربي منذ القرن الثامن الهجري، وبالمثل انتشرت فيه بتلك العامية السير الشعبية: سير عنترة والهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذي يزن. وكان لذلك أثر واسع في تعرف تلك البلدان على العامية المصرين من قديم. وكثيرون يظنون أن تعرف تلك البلدان على عاميتنا أو لغتنا اليومية حديث، وأن الإذاعة والسينما أتاحتا لها هذا التعرف في عصرنا، وهو- كما قلنا- تعرف قديم.

obeikandl.com

خاتمة

تحدثت في هذا الجزء عن تاريخ الأدب العربي بمصر في عصر الدول والإمارات، ورأيت أن أضم إلى العصر ما سبقه بها منذ الفتح العربي من مختلف شئونها التاريخية والأدبية والعلمية على مر الأزمنة الإسلامية. وأوضحت كيف أن قبط مصر رحبوا بالعرب لما كفلوا لهم من معتقداتهم الدينية وما رفعوا عنهم من ظلم الروم وضرائبهم الفادحة. وتولى أمرها فاتحها العظيم عمرو بن العاص. وتعاقب الولاة عليها في زمن الأمويين وأخذوا يفرضون على أهلها ضرائب استثنائية، وأمر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز برفعها عن كواهلهم. وتتحول الخلافة إلى العباسيين ويرسلون إلى مصر بولاتهم حتى إذا انتصف القرن الثالث وليها أحمد بن طولون وأسس بها الدولة الطولونية، واستشعرت مصر في عهدها استقلالها، وبالمثل في عهد الدولة الإخشيدية. وما يكاد ينتصف القرن الرابع حتى تتولاها الدولة الفاطمية الإسماعيلية، ويظل المصريون منصرفين عنها وعن مبادئها الشيعية المتطرفة، وتضعف دولتهم وينزل الصليبيين الشام، ويؤسسون دولة لهم في بيت المقدس. ويدور الزمن دورات وتسقط الدولة الفاطمية، ويتولى مصر صلاح الدين الأيوبي، وينازل حملة الصليب ويسحق جموعهم سحقا في حطين وغير حطين، ويسير سيرته خلفاؤه من حكام الدولة الأيوبية في ضربهم الضربات الماحقة، ويخلفهم المماليك فيسحقون جموع المغول في عين جالوت سحقا ذريعا، ويطردون حملة الصليب نهائيا من الشام إلى البحر المتوسط وما وراءه. ويستولى العثمانيون على مصر لمدة ثلاثة قرون وتصبح بعد أن كانت دولة عظيمة ولاية تابعة للدولة العثمانية.

obeikandl.com

وقد أتاحت الزروع والبساتين على ضفاف النيل رخاء واسعا لسكان مصر من قديم. وأعطى هذا الرخاء لحكامها منذ ابن طولون الفرصة واسعة لبناء البيمارستانات والجوامع الكبيرة والقصور الفخمة. وأتاح ثراؤها الضخم للدولة الفاطمية حياة مترفة بالغة الترف كما أتاح لصلاح الدين أن يعد جيشه بل جيوشه لضرب حملة الصليب ضربات قاصمة، وأيضا فإنه بنى بالقاهرة قلعته المشهورة ومارستانا كبيرا سوى ما شيد من المدارس. وتزدهر الحياة بمصر لعهد المماليك وتتكاثر الأعياد بها تكاثرا واسعا وتتسع موجات الغناء وفنون اللهو والتسلية، وارتقى حينئذ خيال الظل وأصبح مسرحا شعبيا عاما. وألمت بعد عرض المجتمع في مصر للدعوة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية وانصراف المصريين عنها، كما ألمت بالزهد وما كان بمصر من جماعات النساك وكيف أسس ذو النون المصري التصوف الإسلامي ومبادءه الروحية وما يتصل به من الأحوال والمقامات، ويزدهر التصوف منذ زمن الدولة الأيوبية، ويتضح فيه اتجاهان: اتجاه فلسفي يمثله ابن الفارض واتجاه سني شعبي تمثله الطرق الصوفية، ومن أهمها الطريقة الشاذلية التي أسسها أبو الحسن الشاذلي، وقد تعددت فروعها لعهد المماليك تعددا واسعا، حتى بلغت أحد عشر فرعا، ومن أهمها الطريقتان: الوفائية والخلوتية.

ومعروف أن مصر أدت دورا عالميا عظيما في تاريخ الحضارة الإنسانية، ولا تزال أهرامها الشامخة تمثل هذا الدور تمثيلا باهرا، ويدين لها العلم بمعناه العالمي دينا كبيرا بما أدت له في الهندسة والمعمار والطب والرياضة، وتظل جذوتها العلمية متقدة مهما اقتحم أسوارها من الجيوش المغيرة، على نحو ما هو معروف عنها في عهد البطالمة إذ لم تلبث

obeikandi.com

في أيامهم أن استعادت نشاطها وأخذت ترسل أضواءها في الفلسفة وغير الفلسفة. وما إن يمضي على دخولها في الإسلام نحو قرن ونصف حتى تعود روحها العلمية إلى النشاط وإرسال أضوائها وشررها إلى العالم العربي، على نحو ما هو معروف عن ابنها ورش وحمل المغاربة والأندلسيين قراءته إلى أوطانهم، ولا تزال القراءة الشائعة في المغرب إلى اليوم، وما يلبث الأندلسيون والمغاربة أن يتتلمذوا لعبد الرحمن بن القاسم تلميذ مالك، ويحملون عنه المذهب المالكي في الفقه. وينزل مصر الإمام الشافعي ويعنى تلامذته المصريون بمذهبه الفقهي والمحاضرة فيه، ويأخذه عنهم تلامذة من الشام والعراق وإيران وينشرونه في بلدانهم. ويكتب مؤرخها ابن عبد الحكم- لأول مرة- تاريخ الفتوح بمصر والمغرب، ويحمله عنه المغاربة وأهل الأندلس كما يكتب مؤرخها ابن هشام السيرة النبوية العطرة، ويحملها المؤرخون لها في العالم العربي جميعه مغربا وغير مغرب.

ويعنى حكام مصر- منذ عهد ابن طولون- بالحركة العلمية وإنمائها ويؤسس فيها الفاطميون جامعة كبرى تسمى: "دار العلم" كما يبنون الجامع الأزهر ويظل جامعة إسلامية كبرى إلى اليوم، وينشئ بها صلاح الدين الأيوبي خمس مدارس، ويتبارى خلفاؤه الأيوبيين والمماليك في إنشاء المدارس بها والإكثار منها حتى ليقول ابن بطوطة الذي زار مصر سنة ٧٢٦ إن أحدا لا يستطيع أن يحيط بحصرها لكثرتها، وكانت المساجد والجوامع- وخاصة الجامع الأزهر- تنافس المدارس في هذه الحركة العلمية، وكانت مصر قد ظلت ملاذا لعلماء العالم العربي غربا وشرقا، وخاصة بعد استيلاء النورمان على صقلية والإسبان على مدن الأندلس وبعد غزو المغول لمدن إيران

والعراق، وأيضا فإنها أصبحت الحامية للثقافة الإسلامية والعربية. وفي كل مجال يلقانا علماؤها في الفلسفة وعلوم الأوائل من الرياضيات والطبيعيات والطب والجغرافيا، وينهض فيها العلماء باللغة والنحو منذ أوائل القرن الرابع الهجري وتصبح لها مدرسة نحوية يلمع فيها غير نحوي كبير منذ الدولة الأيوبية، ويكثر فيها علماء البلاغة والنقد منذ ابن وكيع التنيسي في القرن الرابع الهجري، ويتكاثر بها علماء القراءات والتفسير والحديث النبوي والفقه بمختلف مذاهبه الكبرى وعلم الكلام، ويؤرخ لكل علماؤها الأعلام في العلوم جميعا تاريخا دقيقا. وتنشط الكتابات التاريخية نشاطا واسعا في السيرة النبوية العطرة والتاريخ العام وتاريخ مصر ودولها وتاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية وتاريخ الرجال والعلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء.

وتأخذ مصر في التعرب منذ الفتح الإسلامي، ويدخل كثير من أبنائها في الدين الحنيف، وحتى القبط أو- بمعنى أدق- جميع من بقي منهم على دينه المسيحي يأخذون في التعرب ويتم تعربهم في القرن الثالث الهجري. ويتصل نشاط الشعر في مصر، ويظل محدودا زمن بني أمية، وزارها في أيامهم بعض الشعراء من نجد والحجاز والعراق، ويتسع نشاط الشعر بمصر في زمن ولاة العباسيين أو يأخذ في النشاط، ويصبح لها شعراء نابهون مثل المعلي الطائي، وينزلها أبو نواس لمديح الخصيب والي الخراج فيها، كما ينزلها أبو تمام لمديح ولاتها ويظل بها فترة. ومن شعرائها في النصف الأول من القرن الثالث ذو النون المصري الإخميمي مؤسس التصوف، ويشتهر بها في بواكير أيام الدولة الطولونية الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام. ويبدو أن الشعراء تكاثروا في عهد هذه الدولة، يدل على ذلك أنها حين انتهت في أواخر القرن الثالث بكاها منهم كثيرون حتى

ليقول المقريزي إنه رأى كتابا به اثنتا عشرة كراسة بأسماء الشعراء الذين بكوها، ويعلق على ذلك قائلا: إذا كانت أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة فما مقدار شعرهم؟ ثم يقول إنه لا يوجد لأحدهم الآن ديوان واحد. ومما يؤكد بوضوح ما كان بمصر من حركة شعرية خصبة أن نجد الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ للهجرة يؤلف كتابا في أخبار شعراء مصر.

وينزلها قبيل منتصف القرن الرابع المتنبي ويحدث نزوله بها حركة أدبية واسعة، ويظل الشعر بها نشيطا في عهد الفاطميين، ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يروى من أنها لم توفي ابن كلس وزير المعز وابنه المعز رثاه مائة شاعر. وينثر الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم العطايا والأموال على الشعراء، مما جعلهم يلهجون بالثناء عليهم، ويؤلف بأخرة من العصر الفاطمي الرشيد بن الزبير كتابا في شعراء مصر سماه: "جنان الجنان ورياض الأذهان" سقط من يد الزمن، ويخص شعراءها في القرن السادس الهجري العماد الأصبهاني وزير صلاح الدين الأيوبي بمجلدين في كتابه الخريدة، ترجم فيها لنحو مائة وأربعين شاعرا، ويفد عليها في أواخر أيام الدولة الأيوبية علي بن سعيد الأندلسي صاحب كتاب المغرب ويخصها هي وشعراءها وكتابها وحكامها ووزراءها وقضاتها بستة مجلدات من كتابه ضاع أكثرها، وبقي منها القسمان الخاصان بالفسطاط والقاهرة، وُحققا وُنشرا. وتظل كتب التراجم في عصر المماليك تترجم لكثيرين من الشعراء النابهين بمصر. وتألقت حينئذ أسماء كثيرين منهم وُنشرت دواوينهم كما نُشرت طائفة من دواوين الشعراء في العهدين الفاطمي والأيوبي. وبقيت من هذا النشاط بقية أيام العثمانيين مما جعل شهاب الدين الخفاجي في القرن الحادي عشر

الهجري يؤلف كتابا في شعراء زمانه سماه: "ريحانة الألبا" خص مصر بالقسم الثالث منه، ونلتقي بتراجم كثيرين منهم بعد الخفاجي في كتب التراجم والتاريخ وخاصة تاريخ الجبرتي.

ويكثر الشعر الدوري بمصر وتكثر مزدوجاته ومسمطاته ورباعياته. وتكثر الموشحات وكان شعراء مصر قد أخذوا يتعرفون عليها في أواخر أيام الدولة الفاطمية، ويتصدى لها الشاعر ابن سناء الملك في أيام صلاح الدين والدولة الأيوبية فيضع لها عروضها كما وضع الخليل بن أحمد قديما عروض الشعر العربي على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس: "دار الطراز". وقد ألحق بدراسته له في الكتاب أربعا وثلاثين موشحة بديعة لكبار الوشاحين الأندلسيين، وأتبعها بخمس وثلاثين موشحة له، وبذلك أعد هذا الفن الأندلسي للذيوع والانتشار، فأقبل عليه شعراء مصريون وغير مصريين ينظمون فيه موشحات لهم رائعة، ونفس ابن سناء الملك مضى ينظم فيه عشرات جديدة من الموشحات حتى لنجد السخاوي في كتابه "سجع الورق المنتحبة في جمع الموشحات المنتخبة" ينشد له أربعا وثمانين موشحة. وترجمت لوشاحين مصريين كبيرين هما العزازي وابن الوكيل. وشاعت الموشحات بمصر على ألسنة المتصوفة في أذكارهم، ولعلي بن وفا شيخ الطريقة الوفائية في أواخر القرن الثامن الهجري وأوائل التاسع ديوان جميعه موشحات صوفية. ويكثر القاضي الفاضل وزير صلاح الدين في شعره من المحسنات البديعية، ويصبح له في طريقة استخدامه لها وفي إكثاره من التورية مدرسة يتكاثر أتباعها في أيام الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر والشام.

obeikandi.com

ويكثر شعر المديح، ويظل يجري على الألسنة زمن الولاة أيام الدولتين الأموية والعباسية، حتى إذا أظل مصر عهد الدولة الطولونية تبارى الشعراء في مديح أحمد بن طولون وفي مقدمتهم الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام الذي مر ذكره آنفا، ومن شعراء تلك الدولة المريمي القاسم بن يحيي شاعر خمارويه. ويشتهر بعده في زمن الإخشيد سعيد بن فاخر شاعره، ويترجم الثعالبي في اليتيمة لكثيرين من شعراء الدولة الإخشيدية، وخاصة من التفوا حول المتنبي حين مقامه في القاهرة مادحا لكافور، ويكثر المديح كثرة مفرطة منذ القرن السادس الهجري ويكثر شعراؤه النابهون، وقد ترجمت لخمسة منهم عارضا روائع مدائحهم، وهم المهذب بن الزهير شاعر طلائع بن رزيك الوزير بأخرة من الدولة الفاطمية، وقد نوه طويلا ببعض انتصاراته على حملة الصليب، وابن قلاقس الشاعر الاسكندري المادح لشاور الوزير الفاطمي والمهاجر بشعره إلى صقلية واليمن مادحا رجالاتها مدحا رائعا، والشاعر المبدع ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين ووزيره القاضي الفاضل، وهو أهم شعراء مصر قبل العصر الحديث ويتميز بفرائد بديعة من التصاوير الطريفة والألفاظ الحلوة العذبة، وابن نباتة شاعر المؤيد صاحب حماة والسلطان المملوكي حسن، ويتميز بلغة سهلة رشيقة مع كثرة التوريات، والشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الأزهر في أيام العثمانيين وله مدائح كثيرة في ولاتهم.

وينشط الرثاء في مصر للحكام وكبار الكتاب وأصحاب المناصب العليا في الدول المتعاقبة، وتكثر الشكوى من الزمن وتقلباته ونوائبه، على نحو ما نجد عند علي بن النضر الشاعر الفاطمي ومراثيه وشكواه من الزمن، وعند علي بن عرام شاعر أسوان،

obeikandl.com

وله مرثية بديعة بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر نادبين موتاهم، وابن النقيب الحسن بن شاور وله شكوى مرة من الظلم والخسف ومن العوز والبؤس، وعبد الله الإدكاوي أيام العثمانيين، وله مرثية يرثى فيا نفسه ويبكيها وقد حمله النعش إلى مثواه. وكان للدعوة الفاطمية الإسماعيلية شعراء غلوا في مديح خلفائهم غلوا مقيتا، إذ جعلوهم فوق البشر والبشرية مسبغين عليهم بعض صفات الذات العلية، وأهم شعرائهم ابن هاني الأندلسي، وتموج أشعاره في المعز الفاطمي بضلال ما بعده ضلال، وكان شاعرا فذا غير أنه سخر ملكته الشعرية في مديح المعز بصفات إلهية قدسية، بهتان ما بعده بهتان. وعلى شاكلته المؤيد في الدين الشيرازي إذ يجعل الخلفاء الفاطميين في مديحه فوق الطبيعة البشرية ويسبغ علهم الصفات الربانية. وثالث هؤلاء الشعراء ظافر الحداد وهو مصري من الإسكندرية، ويلتقط من ابن هانئ- الذي صرح في بعض مديحه للآمر بأنه يحاول محاكاته- بعض معانيه مثل فكرة طاعة الخليفة الفاطمي وأنها فرض واجب، كما أخذ عنه فكرة أن الخليفة نور خالص، غير أنه ظل لا يسرف إسراف ابن هانئ والمؤيد الشيرازي في إضفاء الصفات الإلهية على الخليفة، ومع ذلك يُعد شذوذا على المصريين في أيام الفاطميين، إذ انصرفوا انصرافا تاما عن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية المنحرفة، وظلوا مثل آبائهم سنيين.

ويكثر الغزل مصورا عاطفة الحب الإنسانية عند الشعراء المصريين وقد بثوا فيه حبا متقدا لا تخبو ناره أبدا بما يصور من اللوعات والصبابة والهيام والوله، ويموج شعر كثيرين بوجد لا حدود له على نحو ما يلاحظ في غزل ابن سناء الملك، ويعم الغزل الوجداني بعض أشعار الغزلين، وكأنما يتأثرون فيه الغزل الصوفي الملتاع المعاصر لهم،

ومن أهم شعرائه وأروعهم ابن النبيه، وغزله يتسامى إلى مستوى وجداني رفيع، مما دفع المغنين إلى التغني به لا في مصر وحدها بل أيضا في كثير من ديار العرب، وتغنت السيدة أم كلثوم ببعض غزله الوجداني المكتظ باللهفة واللوعة والرقة واللطف. ولا يقل عنه في الغزل الوجداني لوعة البهاء زهير، وكأنما انطبع الوجد الصوفي وأشواقه في أعماق نفسه مما جعل بعض غزلياته تلتبس عن الأسلاف بغزليات ابن الفارض وما تحمل من مواجد صوفية. ولابن مطروح صديقه حظ من هذا الغزل المملوء بحرارة الوجد ولوعاته والذي يقطر رقة ودماثة وظرفا. ولبرهان الدين القيراطي غزل وجداني كثير يتمثل فيه هذه الطريقة الغرامية التي يذوب فيها المحب لوعة وهياما، ونلتقي في أيام العثمانيين بالعسيلي وما يتميز به غزله من رهافة الحس ودقته.

ويتكاثر الفخر بدوره: الفخر بالأخلاق النبيلة وبالبأس والشجاعة، ولابن سناء الملك فيه منظومة رائعة جسد فيها روحا قوية عاتية: روح بطولة صلاح الدين وجيشه المصري الباسل وما أذاقا حملة الصليب من دمار وتنكيل لا يماثله تنكيل. ومن قديم يسيل الهجاء في ألسنة الشعراء المصريين، وكثيرا ما سلطوا سهامه على الفاطميين ووزرائهم وقد ينحون به أحيانا نحو الدعابة. ونلتقي في الفخر بتميم بن المعز الفاطمي المفاخر بأسرته الفاطمية العلوية فخرا مضطرما بشرر كثير وجهه إلى ابن المعتز الشاعر العباسي وأسرته العباسية، ولطلائع بن رزيك وزير الفاطميين بأخرة من أيامهم فخر كثير بانتصاراته على حملة الصليب. وكان ابن الذروي من كبار الهجائيين، وله أهجية في أحدب مليئة بالسخرية الموجعة، ومثله أحمد بن عبد الدائم الشرمساحي، وكان يكثر

obeikandl.com

من هجائه للناس حتى القضاة وعلماء الدين، وعلى شاكلته حسن البدري الحجازي إذ لم يسلم من هجائه أحد حتى المتصوفة.

ويتعمق الشعور بجمال الطبيعة على ضفاف النيل وفي وديانه ورياضه وحدائقه نفوس الشعراء منذ المريمي شاعر خمارويه، وتكثر مجالس الأنس واللهو والغناء والطرب، ويمثل ذلك كله ابن وكيع المشغوف في أشعاره بالطبيعة والخمر، والشريف العقيلي شاعر الطبيعة المصرية غير مدافع، وابن قادوس وكان يشغف بوصف الخمر، ومثله عبد الباقي الإسحاقي أيام العثمانيين. وعرفت مصر بالزهد والنسك من قديم، ويظل شعر الزهد فيها مزدهرا على مر الأزمنة، وكان ذو النون المصري- كما مر بنا- قد وضع أسس التصوف الإسلامي في القرن الثالث الهجري، غير أنه لم يزدهر بمصر إلا منذ عصر صلاح الدين الأيوبي، وأخذ يتضح فيه- كما مر بنا- اتجاهان: اتجاه فلسفي مثله خير تمثيل ابن الفارض واتجاه سني مثله أصحاب الطرق الصوفية وأتباعهم من مثل الطريقة الشاذلية، ومن أتباعها الشعراء أبو العباس المرسي، وقد ترجمت قبله لابن الكيزان الصوفي المعاصر لصلاح الدين وله أشعار صوفية بديعة، وفصلت القول في ابن الفارض ومجاهداته الروحية وعشقه الرباني، وفنائه وانمحائه في الذات الإلهية إنمحاء كليا.

وكان الشعراء المصريون يتغنون بمديح الرسول صلى الله عليه وسلم من قديم، وأخذ هذا المديح يزدهر في زمن الحروب الصليبية وأكبر مادح مصري للرسول البوصيري ويشتهر بمدحته النبوية المسماة بالهمزية، وربما فاقتها روعة ميميته المسماة بالبردة، وظلت القصيدتان تنشدان- إلى اليوم- في حفلات الموالد وحلقات الذكر

الصوفي. ونلتقي في العصر العثماني بمحمد بن أبي الحسن البكري، وله أشعار يصور فيها بعض مواجده الصوفية، وسؤاله الرسول الشفاعة له يوم القيامة. وألممت بشعراء الفكاهة وعرضت في ترجمات ابن مكنسة والجزار والسراج الوراق طرائف من فكاهاتهم كما عرضت عند ابن دنيال مسرحياته الفكهة وخاصة مسرحية "طيف الخيال" وهي عمل تمثيلي بديع. وألممت بعامر الأنبوطي في أيام العثمانيين ومعارضته الفكهة لألفية ابن مالك وغيرها. وعرضت جوانب من الشعر الشعبي وثلاثة من أعلامه هم: إبراهيم المعمار وتورياته المستملحة، والغباري وأزجاله المتنوعة وابن سودون وفكاهاته المضحكة سواء في وصفه لزوجته ليلة الدخلة أو في رثائه لأمه أو في حديثه عن عجائب الطبيعة، وفيها جميعا يعتمد على المنطق اعتداء يجعل قارئه يستغرق في الضحك.

وينهض النثر وتزدهر الرسائل الديوانية فيه منذ أيام ابن عبد كان كاتب أحمد بن طولون، ومن أعلام الكتاب الديوانيين في عهد الفاطميين ابن الصيرفي، وتتميز لغة كتابته بالسجع والسهولة والتوشيح لها بالألفاظ القرآنية والمحسنات البديعية. ونلتقي بالقاضي الفاضل أهم كتاب مصر، وهو رأس مدرسة ظلت حية في أيام الأيوبيين والمماليك، وهي تلتزم السجع مع صفاء التعبير ومع الإكثار من المحسنات البديعية والعناية بالتورية. ومن كبار الكتاب في أيام المماليك محيي الدين بن عبد الظاهر وابن فضل الله العمري، وتطبع كتابتهما الديوانية بطوابع كتابة القاضي الفاضل.

وتكثر الرسائل الشخصية من تهنئة وشكر وعتاب واعتذار منذ أيام الفاطميين وتعمها خصائص الكتابية الديوانية لأن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين، ومن

أهمهم ابن أبي الشخباء في زمن الفاطميين، وسجعاته خفيفة رشيقة مع صفاء اللفظ ورصانته. ولابن مماتي كاتب الدواوين في عهد صلاح الدين رسائل شخصية يعنى فيها بالسجع ومحسنات البديع ومراعاة النظير وحسن التعليل. ويتميز ابن مكانس في أيام المماليك بالسجع الرشيق والاستعارات والتوريات والجناسات البديعة مع خفة الروح والعذوبة والسلاسة.

ويعنى غير كاتب بصنع مقامات منذ أواخر الدولة الفاطمية، ولا تدور على الشحاذة الأدبية المعروفة في مقامات الهمذاني والحريري، بل تدور على المحاورات أو على عرض بعض مسائل علمية أو على المفاخرات أو على حديث قصصي أو على وعظ، وممن نلتقي بهم فيها بان حجلة المغربي، وله مقامة بديعة في وصف فيضان النيل، والقلقشندي وله مقامة في وصف صناعة الإنشاء وتقريظ صاحب ديوانها، وأخرى في المفاضلة بين العلوم، والسيوطي وله مقامات كثيرة، وأغلبها مفاخرات تدور بين الأزهار أو بين الفواكه أو بين البقول أو بين العطور، والشهاب الخفاجي أيام العثمانيين وله مقامات مختلفة، منها مقامة رومية في وصف القسطنطينية، وفيها يهاجم متصوفتها وعلماءها ومفتيها، ويختمها بمديح السلطان العثماني.

وتتكاثر المواعظ والابتهالات وقد ترجمت في عرضها لأبي الحسن الشاذلي إمام الطريقة الشاذلية، وذكرت قطعة من حزبه الكبير، كما ترجمت لابن عطاء الله السكندري وذكرت بعض مواعظه، وبالمثل لأحمد الدردير أيام العثمانيين وذكرت قطعة من ورده أو حزبه المشهور. وعرت كتب النوادر والسير الشعبية بادئا بكتاب المكافأة لابن الداية، وتلوته بأخبار سيبويه المصري، وكان ينقد الحكام نقدا به كثير من السموم.

وتحدثت عن كتاب الفاشوش في حكم قراقوش لابن مماتي، وكتاب هز القحوف ليوسف الشربيني وما يحملان في نوادرهما من سخرية لاذعة بالحكام، كما تحدثت عن كتب السير والقصص الشعبية: سيرة عنترة والسيرة الهلالية وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة سيف بن ذي يزن وعن ألف ليلة وليلة.

obeikandl.com

كتب للمؤلف مطبوعة بدار المعارف

في الدراسات القرآنية

الوجيز في تفسير القرآن الكريم

الطبعة الثانية ٢١١٢ صفحة

* سورة الرحمن وسور قصار

عرض ودراسة

الطبعة الرابعة ٤٠٤ صفحات

معجزات القرآن

الطبعة الأولى ٢٥٠ صفحة

محمد خاتم المرسلين

الطبعة الأولى ٤٧٦ صفحة

عالمية الإسلام

الطبعة الأولى ١١٩ صفحة

الحضارة الإسلامية في القرآن والسنة

الطبعة الأولى ٣٣١ صفحة

في تاريخ الأدب العربي

في مكتبة الدراسات الأدبية

* الفن ومذاهبه في الشعر العربي

الطبعة الثالثة عشرة ٥٢٤ صفحة

* الفن ومذاهبه في النثر العربي

الطبعة الثانية عشرة ٤٠٠ صفحة

* التطور والتجديد في الشعر الأموي

الطبعة العاشرة، ٣٤٠ صفحة

* دراسات في الشعر العربي المعاصر.

الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة

* شوقي شاعر العصر الحديث

الطبعة الثالثة عشرة، ٢٨٦ صفحة

* الأدب العربي المعاصر في مصر

الطبعة الثانية عشر ٣١٢ صفحة

* البارودي رائد الشعر الحديث

obeikandi.com

* العصر الجاهلي

الطبعة الثالثة والعشرون والعشرون

٤٣٦ صفحة

* العصر الإسلامي

الطبعة الثامنة عشر ٤٦١ صفحة

* العصر العباسي الأول

الطبعة الخامسة عشر ٥٧٦ صفحة

* العصر العباسي الثاني

الطبعة الحادية عشرة ٦٥٧ صفحة

* عصر الدول والإمارات

الجزيرة العربية ـ العراق ـ إيران الطبعة

الرابعة ٦٨٨ صفحة

عصر الدول والإمارات

الشام الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

* عصر الدول والإمارات

(مصر) الطبعة الثالثة ٥٠٠ صفحة.

الطبعة الخامسة، ٢٣٢ صفحة

* الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني

أمية

الطبعة الخامسة، ٣٣٦ صفحة

البحث الأدبي:

(طبيعته ـ مناهجه ـ أصوله ـ مصادره

الطبعة السابعة، ٢٧٨ صفحة.

*الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور.

الطبعة الثانية، ٢٥٦ صفحة

* في التراث والشعر واللغة

الطبعة الأولى، ٢٧٦ صفحة

* في الشعر والفكاهة في مصر

الطبعة الأولى ١٢٨ صفحة

في الدراسات النقدية

في النقد الأدبي

obeikandl.com

* عصر الدول والإمارات

(الأندلس) الطبعة الثالثة، ٥٥٢ صفحة

* عصر الدول والإمارات.

(ليبيا ـ تونس ـ صقلية)

الطبعة الأولى ٤٤٦ صفحة.

*عصر الدول والإمارات

(الجزائر ـ المغرب الأقصى ـ موريتانيا ـ السودان)

الطبعة الأولى ٧٠٦ صفحة

الطبعة الثامنة ٢٥٠ صفحة

فصول في الشعر ونقده

الطبعة الثالثة ٣٦٨

في الأدب والنقد

الطبعة الأولى ١٥٢ صفحة

في الدراسات البلاغية واللغوية

البلاغة: تطور وتاريخ

الطبعة الحادية عشر ٣٨٠ صفحة

المدارس النحوية

الطبعة الثامنة ٣٧٦ صفحة

* النقد

الطبعة الخامسة، ١١٢ صفحة

الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة، ١٢٨ صفحة.

الرحلات

obeikandl.com

تجديد النحو

الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة

تيسير النحو التعليمي قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده

الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحات

تيسيرات لغوية

الطبعة الثانية ٢٠٠ صفحة

تحريفات العامية للفصحى

الطبعة الأولى ٢٠٣ صفحة

في مجموعة نوابغ الفكر العربي

ابن زيدون

الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

في مجموعة فنون الأدب العربي

* الرثاء

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

* في التراث المحقق

* المغرب في حلي المغرب لابن سعيد

الجزء الأول ـ الطبعة الرابعة، ٤٦٨ صفحة

الجزء الثاني ـ الطبعة الرابعة، ٥٧٢ صفحة

كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثالثة، ٧٨٨ صفحة

* كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثالثة، ١٥٢ صفحة

*الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر.

الطبعة الثالثة، ٣٥٦ صفحة

obeikandl.com

الطبعة الرابعة، ١١٢ صفحة

* المقامة

الطبعة الخامسة، ١٠٨ صفحات

في سلسلة "اقرأ"	
* مع العقاد الطبعة الخامسة	* معي (١) الطبعة الثانية
* البطولة في الشعر العربي الطبعة الثانية	* معي (٢) الطبعة الأولى
* الفكاهة في مصر الطبعة الثانية	القسم في القرآن الكريم الطبعة الأولى

obeikandl.com